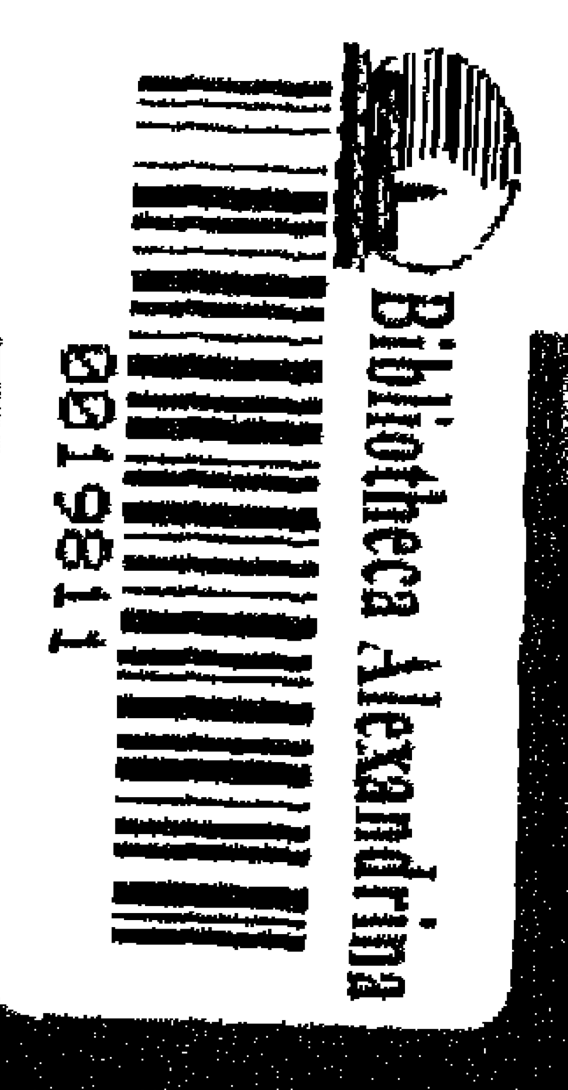




هوشنك بروكا

دراسات في

ميثولوجيا الديانة الإيزيدية

الطبعة الأولى

1995

إصدار خاص

❖ لوحة الغلاف: الفنان رشيد حسو

هوشنك بروكا

دراسات في

ميثولوجيا الديانة الإيزيدية

- المانيا 1995 -

الإهداء

إلى التي امطرتني دفئاً... وطناً في تخوم طفولةٍ من غُبار... وللغبار....

بروميثيوسي...

أمّي

إذا لم يكن من عادة المرء أن يسأل نفسه: ماذا أرى في هذا الشيء؟ فإني لا أستطيع أن أفعل له شيئاً...

«كونفوشيوس»

مقدمة

حاول بعض الباحثين والكتّاب المغرضين تناسـي التـاريخ وتجـاهل حقائقـه، لدى دراستهم للديانة الايزيدية فعدّوها فرقةً صوفيةً إسلاميةً ليـس إلا، ولم تكـن لهذه الطائفة، حسب نظرة هؤلاء وجود في خريطة الأديان قبـل القـرن السـادس الهجري إلى أن جاء الشيخ عُدي بن مسافر (المتوفي سنة 1160م) والذي اتخذ مـن الزهد والتصوف طريقاً له، فأسس في زاوية لالش الـتي هـاجر إليهـا مـن الشام (بَعلَبَك) طريقةً خاصةً به عُرفت بالطريقة العدوية.

يقـول عبـاس العزّاوي في كتابـه الموسـوم بـ «تـاريخ اليزيديـة وأصـل عقيدتهم»:

«ونتائج ما حققته هو أن اليزيديين مسلمون حقيقيون يعتقـدون إلامامـة في يزيد وكونه على الحق. وتوارثوا تقاليد قومية ودينية صوفية واعتيـادات ممزوجـة بتعصب الأمويين، مما أبعدَ شقة الخلاف بينهم وبـين جمهـور المسـلمين، فـأدّى إلى تقاليد خاصة افسدت جوهر اسلاميتهم» (ص7).

إلا إننا نختلف مع هذا الرأي وننفيه نفياً قاطعاً كونه يفتقر إلى أبسط الأدلـة التاريخية والأثيولوجية (علم دراسة الأسباب والبدايات). ضارباً بأصول البحـث

العلمي عرض الحائط. فبالرغم من اقرارنا بالدور الكبير الذي لعبهُ الشيخ عدي بن مسافر في مسيرة تاريخ هذه الديانة باعتبارهِ واحداً من مبشريها وحاملاً لرايتها في مرحلة اساسية ومرتبكة من مراحل تطورها، رغم ذلك فإن الايزيدية لم تظهر بظهور هذا الشيخ الزاهد كما يُدَّعى أو قد يُعتَقَد، فهي سابقة عليه بل هي تعود إلى ما قبل الميلاد بقرونٍ عديدة، وسنبيّن هذا لاحقاً في سياق البحث والدراسة.

وبهذا تكون الإيزيدية قد مرَّت خلال تاريخها الطويل /المرير، بمرحلتين أساسيتين يعتبر مجيء الشيخ عدي منعطفاً تاريخياً حاسماً وفاصلاً بينهما:

- المرحلة ما قبل العدوية وهي المرحلة الأكثر أصالةً وتجسيداً لروح الإيزيدية.

- المرحلة ما بعد العدوية والتي شهدت تغيّراتٍ بل شطحات طفروية وظهور أجسامٍ غريبة في جسد الخلية الايزيدية.

تتسم الإيزيدية كما هو جليٌّ ومعروف بطبيعةٍ إنطوائية تستوجب على أتباعها كتم الموروث الديني وحفظ أسرار ديانتهم لئلا تُفشى بين معتنقي الأديان الأخرى. مما يوقع باحثيها ودارسيها في دوامةٍ من الاشكاليات، لا سيما لو علمنا أن علم الصدر والتراث الشفاهي هما المصدران الوحيدان اللذان يوصلاننا إلى حقيقة هذه الديانة.

لذا يدرج الباحثون اليوم الإيزيدية تحت قائمة الأديان القديمة التي يُخشى عليها من الانقراض والتلاشي.

فلكل ثقافة ميثولوجيتها الخاصة بها وأساطيرها في تناول الخلق والكينونة، الموت والحياة، الخير والشر... الخ، ولقد ظهرت هذه الأساطير الميثولوجيا

الإنسانية حينما وقف الإنسان عاجزاً عن تفسير الظواهر المحيطة به في صراعه المصيري الشاق مع الطبيعة وقواها الغيبية التي كانت تهدد كيانه. فهرب بخياله إلى ما وراء الطبيعة، مستنجداً بقوى خارقه وكائنات فوقبشرية ثم نسب إليها كل مظاهر الجبروت والهيبة والألوهية حتى باتت لكل ظاهرةٍ الهها ومدبّرها الذي لا بدّ من التوسل والتضرع إليه لإتقاءِ شره أو التشفع بخيره ورحمته.

والإسطورة في أساسها جاءت لتفسر ظاهرةً، أو سراً ما، سواءٌ في الطبيعة أو في المجتمع حيث استسلم الإنسان لها فكان لا بد من الميتافيزيقيا.

وما الدين إلاّ امتدادٌ لخط التطور الإسطوري لدى الأقوام والجماعات البشرية التي اعتنقت أفكاراً ومعتقداتٍ تلائم طريقة تفكيرها وأساليب معيشتها.

لأن الإسطورة أنّى واينما كانت هي في النهاية انعكاس للواقع الثقافي المعاش بل هي افرازٌ من إفرازاتها على مرّ التاريخ.

لذا فإن تطوراً في الثقافة ككل لا بدَّ وأن يخلف وراءه تغيراً في الإسطورة كجزء من ذاك الكل، فتتعقد هذه الأخيرة إذن وتتشابكُ بتعقدات الثقافة وتشعباتها، فالأفكار والمعتقدات الدينية هي انبثاقٌ من رحم الإسطورة في مرحلةٍ من مراحل تطورها.

ومن هنا تناولنا الإيزيدية في أبحاثنا من وجهة نظر ميثولوجية كأساس منهجيّ من أسس الدراسة وتحركنا من خلالها على مسارين رئيسين:

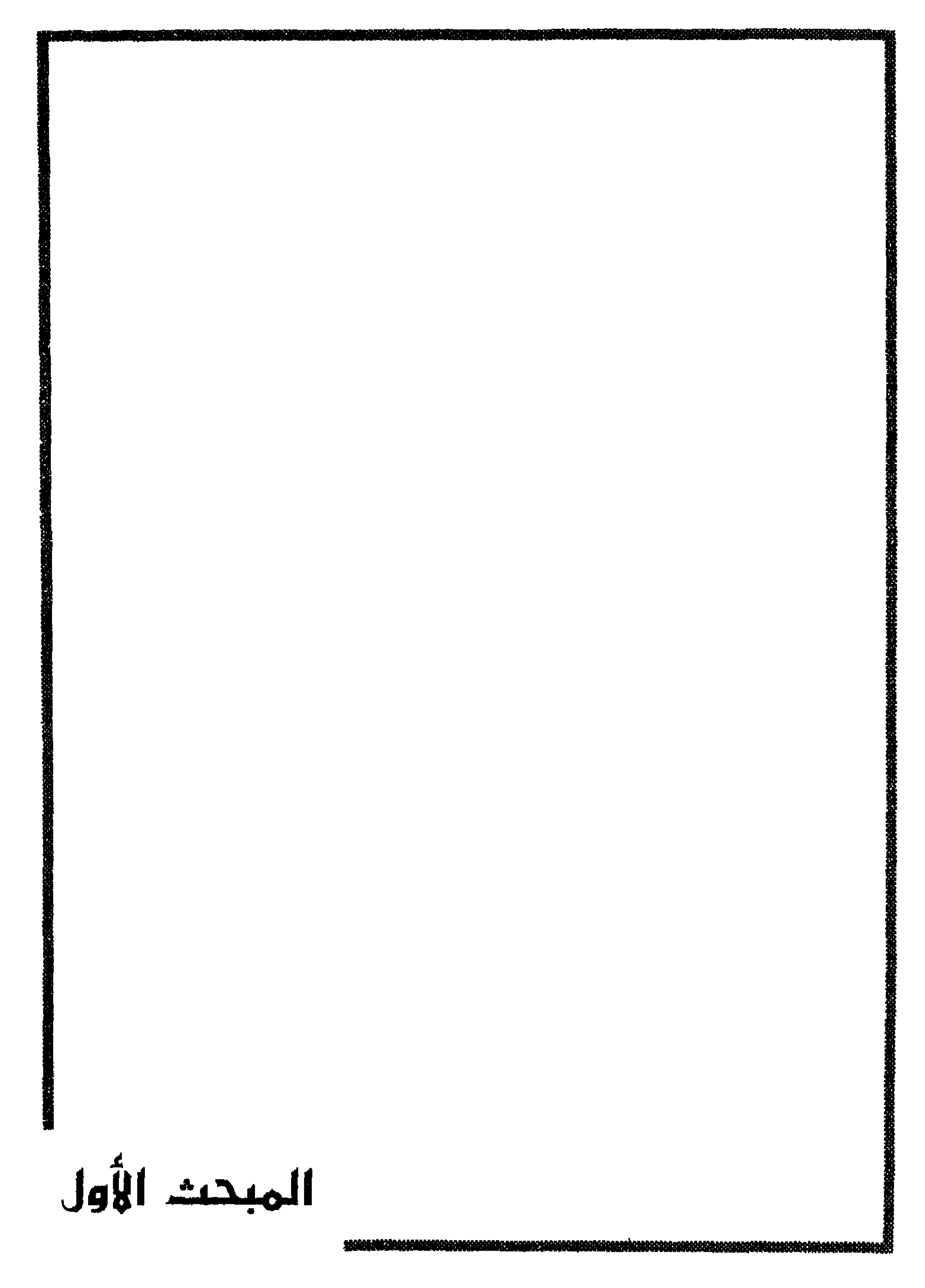
الأول: هو البحث في الميثولوجيا الإيزيدية كما هي (لا كما يجب أن تكون) منطلقين من التراث الشفاهي المتوارث كأرضية أساسية للتوصل إلى الأصول الحقيقية الأولى لهذه الديانة.

الثانية: هو البحث في ميثولوجيات الأديان الأخرى ولا سيما الهندوايرانية

ومعتقدات الحضارات المتواليـة في منطقـة الميسـوبوتاميا. وسلّطنا جهازنـا التنظـيري علـى أوجـه الشبه بينهـا وبـين الايزيديـة، ثـم حاولنـا تحليلهـا ودراستها دراسةً مقارنة من منظور علم الأديان المقارن.

هوشنك بروكا

1995/4/7 برلين



المبحث الأول

إشكالية التسمية في الإيزيدية [1]

* - تاريخ مغيّب:

تعدُّ الايزيدية حلقةً شبه مفقودة من سلسلةِ الديانات الشرقية الهندوايرانية القديمة، حيث كانت ولا تزال ضحيةً لنزوات الكتاب المغرضين واهوائهم ومصالحهم الطائفية /التعصبية الضيقة.

وما من دينٍ تجنى عليه التاريخ وجهله الناس واختلفوا في نشأته وظهوره وحركة تطوره التاريخي ومعرفة أصله كالدين الايزيدي.

وبالرغم من الأبحاث الكثيرة التي قام بها جماعةٌ كبيرة من الدارسين والباحثين الشرقيين والغربيين لمعرفة حقيقة هذه الديانة، إلا أننا لا نجد اثنين من هؤلاء الكتاب يتفقان على رأي واحد، فتباينت الآراء والنظريات والروايات حول منشأ هذه الديانة وأصلها وتسميتها بتعدد الكتاب الذين تطرقوا لدراستها والكشف عن خباياها.

«ومهما يكن أصل هذه الديانة (والراجح أنه فارسي (قديم)) . فمما لا شكّ

---

[1] - نشر هذا البحث في مجلة «مه تين» الصادرة باللغتين العربية والكردية في العددين 34 و 35 /1993 كردستان العراق.

فيه أن النواةَ الأصلية قد امتزجت بعناصر أخرى (من).. بعض الأديان التي تشربت اليزيدية من معتقداتها حتى تشمل أكثر ديانات الشرق الأدنى»[1]

إن أصل وتطور الإيزيدية المركّبة لم يتوضحا بعد، غير انه يظهر أنّ عقيدتهم تشمل عناصر وثنية قديمة (لكنها ليست من قبيل الشمس والقمر) وعناصر ايرانية زردشنية (بعض منها يشبه الثنوية الفارسية)، ومانوية (مذهب المعرفة الفارسي) ويهودية (تحريم الأطعمة) ونصرانية ـ خاصة من النساطرة ـ (المعمودية، العشاء الرباني، زيارة الكنائس المسيحية في حفلات الزواج، تحليل شرب الخمر)، واسلامية (الختان، الصوم، تقديم الضحايا، الحج، الكتابات القبرية الإسلامية) وصابئية (التقمص) وصوفية رافضية (كتمان العقيدة، الوجد، تعظيم عدد كبير من الشيوخ الصوّفية) وشامانية (طرق الدفن، تفسير الرؤى، الرقص) [2]

إن التداخل الديني /الميثولوجي للايزيدية مع معتقدات الأديان الأخرى، وتشرذمها في جغرافية الأديان. الهندوايرانية، قد أضاعها في دوّامة من الإشكاليات حتى بات من الصعب جداً استخراج نواتها الصحيحة لرسم معالمها الحقيقية.

وما نتوخاه في هذه الدراسة هو تتّبع واحدة من تلك الإشكاليات المربكة والتي لا تزال مثاراً للنقاش والجدل بين العلماء والباحثين في الديانة الإيزيدية. ألا وهي اشكالية التسمية.

* يزيد .... واليزيدية:

لقد اعتقد بعض الكتاب وفي مقدمتهم السيد أحمد تيمور أن إسمَ الطائفة الايزيدية لم يكن موجوداً قبل القرن السادس الهجري إلى أن جاء الشيخ عدي بن مسافر المتوفي بين سنة 555 هـ أو 557هـ/ 1160م وأسس طريقة خاصة به سميت بالطريقة العددية.

ويتجه هذا الفريق من الكتاب إلى ربط الايزيدية وتاريخها بالخليفة الأموي الثاني (يزيد بن معاوية) ويجعلونه نبيهم الأكبر ويدعمون رأيهم هذا بـ «مصحف رش» حيث وردت فيه هذه الرواية:

«كان نبي الإسماعيليين «محمد» يسلك في عمله مسلكاً مخالفاً لما أمره به الحق الباري فعاقبه بوجع الرأس، وحين اشتدَّ عليه الألم أمر خادمه «معاوية» كي يحلق رأسه ويخفف عنه الألم حيث كان معاوية يحسن الحلاقة، وبينما هو يحلقه بخفةٍ جرحه وأسال دمه. وخوفاً من أن يراه محمد لطعَ دمه المُسال بلسانه فأحس به محمد وقال: ماذا فعلت يا معاوية ـ ؟ ـ أجاب: لحستهُ بلساني خوفاً لئلا يسال دمك على الأرض. فقال محمد: لقد أخطأت. وسيأتي من صلبكَ قومٌ عدوٌ لأمتي.. فأجابه معاوية: إنني لن أتزوج أبداً. بعدها سلطَ الله على معاوية العقارب فلدغته في وجهه وجزم الأطباء بموته إن لم يتزوج حينها، فتزوج إمرأةً في الثمانين ليأمن حبلها، ولكن هذه العجوز ما لبثت أن ظهرت في اليوم الثاني بريعان شبابها وحبلت بـ «يزيد» الذي أصبح إلهاً للملة اليزيدية»(3)

سنتوقف عند هذا الرأي بشيءٍ من التحليل والتفسير، لنبين فيه مدى الجهل والخطأ التاريخي، وذلك من خلال النقاط التالية:

1 ـ إن الايزيدية وحسب رأي أغلب الباحثين فيها ـ هي ديانة قديمة بين مجموعة الديانات الشرقية /الهندوإيرانية. وبالرغم من غموض تاريخها وزمن ظهورها إلا أننا نستطيع القول مع الكثير من الباحثين بأن لها تاريخاً بعيداً وبالتالي لا تسبق الشيخ عدي بن مسافر وحسب بل وحتى الميلاد بقرون عديدة.

ولم يكن الشيخ عدي من الناحية التاريخية إلا مصلحاً دينياً دعا الايزيديين إلى الصلاح والهداية. حيث «جاء ليغير التركيب الخارجي

(للايزيدية) وذلك بوضع نظامٍ هرميٍّ لتقسيمها إلى مراتب دينية دون أن يتمكن من تغيير محتواها وفلسفتها اللاهوتية بحيث بقيت الآثار القديمة تفعل مفعولها في هذه الديانة» [4]

وكان ظهور الشيخ عدي منعطفاً حاسماً في تطور هذه الديانة ممّا أدخلها في مرحلةٍ جديدة سميت بإسمه «المرحلة ما بعد العدوية».

2 ـ إن موقف الايزيدية ـ كديانة ـ من يزيد بن معاوية كان موقفاً سياسياً بحتاً وجاء نتيجة منطقية لما يلي:

أ ـ تولي يزيد بن معاوية الخلافة على كراهية الكثير من المسلمين وخصوصاً الشيعة منهم، ثم توسعت شقةُ الخلاف بينه وبين المسلمين /الشيعة بعد قيامه بقتل الحسين بن علي والعدوان على اهل المدينة، ولا يزال يوم العاشر من محرم يوم حدادٍ عند العلويين والشيعة وهو اليوم الذي قتل فيه الإمام الحسين بن علي في حادثة كربلاء على أيدي الأمويين.

هذا بالإضافة إلى استهانة يزيد بن معاوية واستهتاره بالكثير من المعتقدات الإسلامية حتى قال عنه المسعودي:«كان فرعون أعدل منه في رعيته وانصف منه لخاصته وعامته»[5]

ونُسب إلى الرسول محمد أحاديث في ذم معاوية بن أبي سفيان منها: «يطلع من هذا الفج رجلٌ من أمتي يحشر على غير ملتي»

«إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه».

«إن معاوية في تابوت من نار في أسفل درك منها ينادي يا حنانْ يا منان إلخ [6]

ب ـ تعرض الايزيديين للكثير من المذابح والإضطهادات تحت راية الإسلام

ومحاولة صهرهم في بوتقته. ومن هنا توّحد موقف الإيزيدية كدين مع موقف يزيد بن معاوية كخليفة حاكم بالوقوف على الطرف النقيض من الإسلام، واشتهرت في ذلك الحين مقولة ليزيد بن معاوية مؤداها «إني أوصيكم بإخوانكم الأكراد خيراً» ومن المرجّح جداً ان هؤلاء الأكراد الذين قصدهم يزيد هم الأكراد الايزيديون حصراً أولئك الذين وقفوا موقفاً عدائياً من الرسالة المحمدية.

إن هذا الموقف السياسي الصرف للايزيدية قد تحول مع مرور الزمن إلى موقف ديني/ميثولوجي حتى ارتقى «يزيد» إلى مصاف الآلهة بعد مجيء الشيخ عدي الأموي في أصله (هو من عائلة مروان بن الحكم رابع الخلفاء الأمويين) وقيامه بنشر افكاره. هذا الشيخ الذي لا بدّ وأنه قد حنّ إلى تلك الفترة الذهبية من الخلافة الأموية بعد أفول نجمها، فقام بتبجيل معاويةَ وإبنهِ يزيد وصبغهم بصبغة إلهية في الكتاب المنسوب إليه «مصحف رش» مستفيداً من الموقف العدائي الذي اتخذه يزيدُ بن معاوية من الإسلام . فعزف بذلك على أكثر الأوتار حساسية في الايزيدية ألا وهو الثأر التاريخي القائم بينها وبين الإسلام نتيجة الفرامانات التي ذاق من جرائها الايزيديون الأمرين .

جـ ـ إن لم نسلّم جدلاً بأن الموقف المذكور آنفاً كان سياسياً محضاً فلماذا لم يخبرنا التاريخ عن قيام يزيد بن معاوية بمحاولةٍ لتأسيس طريقةٍ أو دينٍ دان به أحد من البشر خلال فترة خلافته القصيرة جداً «ثلاث سنوات ونصف أي الفترة ما بين 60 ـ 64 هـ».

ومن هنا إختلف الأمر على بعض الكتاب فوصفوا الإزيدية على

أنها «حركة سياسية خالصة جعلت لها صبغة دينية تسير تحتها لتُعيدَ الحكم إلى الأمويين» (7)

وهذا رأي متخبط من الناحية التاريخية لأنه كان للايزيدية وجودها كدين قائم بذاته قبل يزيد بن معاوية بمئات السنين. لذا فالأصح هو أن الإزيدية وفي مرحلة متأخرة من مراحل تاريخها أخذت شكل حركة سياسية مناصرة ليزيد بن معاوية ضد جبهة الاسلام السياسي المتمثلة بالشيعة.

أما السيد اسماعيل بك جول فيرى انه كان للإيزيدية ملك قبل يزيد بن معاوية يدعى «زيد الجعفي» جاءهم من حدود ايران والكرد. ويزعم جول بك أن أغلبية الأكراد الايزيديين يُنسبون إليه أما القسم الباقي فهم آشوريون(8)

إن هذا الرأي مغلوطٌ من الناحية التاريخية ولا يمكننا الأخذ به إلا في كونه إجتهاداً شخصياً.

ذهب فريق آخر من الباحثين إلى القول بأن الإيزيدية في الأصل كانوا على مذهب الخوارج نسبة إلى يزيد بن أنيسة الخارجي.

يقول الشهرستاني (467 ـ 528 هـ): إن فرقة اليزيديين من أتباع الخارجي يزيد بن أنيسة حيث سموا باسمه(9) وكان يزيد بن أنيسة هذا يزعم أن الله تعالى سيبعث رسولاً من العجم وينزل عليه كتاباً قد كُتِب في السماء وسيترك شريعة محمد ويكون اتباعه من ملة الصابئة التي جاء ذكرها في القرآن.

ويقول المتصوف اليماني الشافعي عبد الله بن سعد اليافعي المتوفي حوالي سنة 768 هـ ـ 1367 م في كتابه «محرم العلل المعطلة في الرد على أئمة المعتزلة» أن اليزيدية هي إحدى فرق الخوارج من أصحاب يزيد بن أنيسة الخارجي. ويضيف

قوله بانهم ذهبوا إلى نسخ شريعة الإسلام الذي جاء به محمد، ينسخها نبي من العجم يأتي من الصائبيين وبقرآن غير هذا القرآن[10] .

إن تسمية الايزيدية بإعادتهم إلى يزيد بن معاوية أو يزيد بن أنيسة او من الفرق الاسلامية لا تخرج من إطار النظرة الإسلامية الضيقة التي تجهل الحقائق التاريخية والأثنولوجية، ولا تذهب بالتاريخ إلى ما قبل الإسلام، لتوهِمَنا بأن كل التاريخ هو الإسلام بما يحيل دون الوصول إلى النواة الحقيقة لأصل الديانة الايزيدية.

وقد مارس الإسلام سياسة الصهر والعنف ضد الأدياان الأخرى التي لم ترفع رايتها في فترة ما يسمّى بـ «عصر الفتوحات» فمن لم يكن معه كان يعتبر ضداً أو نداً له. وباعتبار أن الايزيديين أبوا أن ينضووا تحت لواء الإسلام ودافعوا عن معتقداتهم واستقلاليتهم لذلك تم الصاقهم بكل من خالف الإسلام أو خرج عن طريقه كيزيد بن معاوية ويزيد بن أنيسة و.... الخ.

وهذا أحدهم إذ يقول:

«أما الخوارج فكفروا الحسن بتسليم الأمر لمعاوية .... وأما اليزيدية فيفسقون الحسين لخروجه على يزيد بن معاوية (لعنه الله) وهو امام عندهم نص عليه معاوية على زعمهم»[11]

* آراء أخرى:

في الوقت الذي ذهب فيه بعض الكتاب بإعادة الايزيدية إلى أصول إسلامية بعدّها فرقةً من فرقها، فإن باحثين آخرين ذهبوا إلى ما قبل الإسلام ، مبرهنين بذلك على لا إسلامية هذه الطائفة وبراءتها منها واستقلاليتها التامةَ كديانة قائمة بذاتها.

فالسيد تيودور منزل Th - Menzel مثلاً أطلق على الإيزيديين لقب «الداسنيين» نسبة إلى جبل «داسن Dasin» الذي يسمى حالياً بجبال المزورية

وربط «منزل» هذه التسمية مع إسم أبرشية نسطورية قديمة إذ يؤيد Mizurya . نظريته بالقول بأن اليزيديين في سوريا يسمون بالداسانية.(12)

ومن الجدير ذكره أن لفظة الداسني هي لقب قبيلة ايزيدية في إحدى المناطق المجاورة لمدينة الموصل ولها امتداد في كل من سوريا وتركيا.

وهناك رأي آخر حول تسمية الايزيديين بالداسنيين إذ يقول أنّ الداسني هو الذي يعبد الديو «ديويه ره ست » وبما أن الإيزيدية معروفة بعبادتها لـ إبليس فهي نفسها الداسنية تلك الديانة الفارسية القديمة.

اتخذ آخرون اسم اليزيدية على أنه مشابه للكلمة العربية «عيسو Iezou التي معناها ـ حسب رأيهم ـ المسيح فيكون اليزيديون حسب هذا التعبير قد أطلقوا على أنفسهم إسماً مسلماً يشابه كلمة المسيح، فوقع اختيارهم على الاسم: (يزيديون) الذي اتخذوه أيضاً لإثبات شجاعتهم ولا مبالاتهم بالخوف، لأنه صار على اسم خليفة مسلم معروف بظلمه وفجوره وسوء عمله ، دون أن يخشوا من اتخاذ هذه التسمية. ثم يستطرد هذا الرأي بالقول بأنه إذا ما سئل يزيدي عن دينه يقول: أنا من أتباع عيسى (ويقصد المسيح) وبذلك فاليزيدية على حد قولهم من أصل مسيحي.(13).

إلا أننا لم نعثر في التراث الايزيدي و لم نسمع ما يؤيد مثل هذا الرأي، فهو يفتقر إلى أبسط الأدلة لإقناعنا . إضافة إلى الفرق الكبير بين لفظتي / عيسو واليزيدية/ فضلاً عن أن الايزيديين لا يعتبرون أنفسهم من أتباع عيسى /المسيح . بل لا يتوانَون في عد انفسهم أتباعاً لملاكهم الأكبر طاووس ملك «ئه م مله تى تاوس مه له كين» أي نحن قوم طاووس ملك.

أما الشيخ علي الشرقي النجفي فقد فضلّ اطلاق (البازندية) على هذه الطائفة

بدلاً من (اليزيدية) لاعتبارات وجدها مبررة لهذا الترجيح. ولا يقل هذاالرأي عن سابقه افتقاراً للأدلة والبراهين الكافية لإثباته ومقاربته من المنطق والموضوعية.

. باحث، آخر وهو بارثولد Barthold قال بأن الايزيديين عرفوا باسم سابق هو «جلبي - Tshelebi » إسم جلبي هو اسم الشيطان.(14)

والمعروف ان «جلبي - Tshelebi» هو لقب يطلقه الناس عادةً وخاصةً في العهد العثماني - على وجهاء البلد والأثرياء منه. وهناك عوائل إسلامية كثيرة تحمل هذا الاسم وليس هناك ما يثبت تسمية اليزيدية به أو إنه اسم من أسماء ابليس.(15)

وهناك من يسمي الايزيديين بالپارثيين أو بقايا الديانة الزرادشتية وذلك لوجود تشابه بين طقوس هاتين الديانتين، ويدعم الدكتور الأحمد هذا الرأي بقوله «وبعد أن اكتسحت الجيوش العربية إيران في عهد الخليفة عمر بن الخطاب هاجرت بعض العائلات الزردشتية من ايران وربما كثير من يزد نفسها أو قد يكونون من طبقات نبيلة أو كهنوتية متنفذة وسكنوا في منطقة بشمالي العراق وسورية من ضمنها وادي لالش التي لا بد وأن يكونوا على علم بإنعزالها وجدوها لدى دخولهم مسكونةً من قبلِ جماعةٍ تمارس المثروية منذ زمن بعيد (شمسيين) ورهبان مسيحيين. وتكون هجرة هؤلاء الآن أشبه بهجرة إخوانٍ لهم بالدين إلى بلاد الهند في نفس الوقت الذي افترضناه واحتفظوا بدينهم هناك ومارسوه بحرية طوال هذه المدة وعرفوا باسم البارثيين Parsees .(16).

وبالرغم من أن هذا الرأي يعكس جانباً من الحقيقة لتقاطع الكثير من المعتقدات الايزيدية مع المعتقدات الفارسية القديمة إلا أننا لا نستطيع الركون إليه بعدّهِ حقيقةً مطلقةً قاطعين الشك باليقين على أن الايزيديين هم البارثيون انفسهم لأننا لا نعتقد بأن تكون الايزيدية من بقايا الديانة الزرادشتية كماهي حال البارثية.

ونظراً للطابع التقديسي الذي تكنه هذه الطائفة /الايزيدية/ للنار والشمس باعتبارها ممثلةً إلههم الأكبر شيخ شمس ـ Sheshems /إله الخير والأرزاق والحياة الخالدة والحرية، فقد أطلق عليهم بعضهم إسم الشمسانية. والشمسانية كما هو معروف يعدُّ أصلاً من أصول طبقات الشيوخ الثلاث (الآدانية ـ القاتانية ـ الشمسانية).

وقد ذكر الكثير من المؤرخين المسيحيين عن وجود جماعةٍ تعرف بالشمسيه. فهذا كريكور ماكستروس (Grikor MaksTros) المتوفي سنة 1058 م ذكر الشمسية في جوابٍ له على رسالةٍ تسلمها من بطريرك السريان جاء فيها:

«وهناك أُناس يعبدون الشمس والذين خدعهم مجوس الفرس التابعون لرأي زرادشت الفارسي ويعرفون بالشمسية، وهم كثيرون في هذه الربوع (بين النهرين) وهم يسمون أنفسهم نصارى (ربما خوفاً من المسلمين) ونعرف أنك لا تجهل سيرتهم الشريرة المفضوحة»(17).

وقال كاتب آخر من القرن الرابع عشر وهو ميختيار أبارنيتسي MekhiTar AbaromTsi ما نصه:

«وعندنا عبدة الشمس (شمسيون) وهم أرمن ويتكلمون الأرمنية واسمهم «اريفورتي ArevorTi » (كلمة أرمنية معناها عبدة الشمس أو شمسيون) وليس لهم كتابة ولا علوم أدبية بل يعلم الآباء والأبناء بالتقليد ما تعلمه أجدادهم من زردشت ويسجدون للشمس حيثما تتجه ويحترمون شجرة الحور والسوسن والقطن... وهم يجتمعون في السنة مرتين أو أكثر رجالاً ونساءً ـ في مغارةٍ مظلمة جداً (18).

إن لهذه الطقوس والعادات والشهادات التي ذكرها هذا الكاتب عن الشمسيين وجه شبه كبير مع مثيلاتها عند الايزيدية، فالايزيديون يتوارثون تراثهم الديني جيلاً

عن جيل دون أن تكون هناك كتب أو مصادر دينية يعتمدون عليها، كما أنهم يقدسون الشمس ويسجدون لها متخذينها قبلةً لصلواتهم وينظرون لشجرة الزركوز الشبيهة بالحور بقدسية . إضافةً إلى إجتماعاتهم السنوية أثناء المناسبات والأعياد وغيرها من الطقوس.

ويولي التراث الشفوي وعلم الصدر الايزيديان أهمية استثنائية للشمس ولروحها المتجسدة في الشيخ شمس /إله الشمس. وهذه بعض الأمثلة: جاء في دعاء الصبح:

ژ مالى هه تا مالى	من الدار حتى الدار
شيشيمس خوه دانى سيڤالى	الشيخ شمس هو إله النور
ئه م ژشيشيمس نايرين خيالى	هو لا يفارق خيالنا
ده ره جي هه تاده ره جى	من الدرج حتى الدرج
شيشيمسه خوه دانى فه ره جى	الشيخ شمس إله الفرج.
ئه م دى ده ستو داما نيد شيشيمس شووناكه	نعبد الشيخ شمس بدلاً عن كعبة الله
عبه تول لاه وحه جي طواف كه ين	(المقصود هو قبلة المسلمين)

وجاء في دعاء المساء:

يا سوارى روژهلاتى، روژئاڤايى	يا فارس الشروق والغروب
هوون بيدنه خاترادوتى ودايى	بحق الأم وابنتها
هوون مه خه لاسكه ن ژقه دايى ژبه	نجنّا من شر البلية والقحط
لايى زغه لايى	أيا شيخ شمس هلاّ انعمتنا برحمتك
يا شيشيمس تو حالى مالا خو بپيرسى	وشفاعتك
ومه ژى ڤي جاري	

19

هذا وتوجد أدعية أخرى كثيرة تعظم من شأن هذا الإله مما تجعلنا نعتقد بوجود علاقة بين الشمسيين /عبدة الشمس، والايزيديين/ مقدسي الشمس. هاتان الطائفتان اللتان تمحورتا حول الشمس كونها المجسدة لروح الإله.

* يزد.. يازاتا ... يزدان... ئيزي والايزيدية /مقاربة المنطق:

على اعتبار أن الايزيدية ديانة هندوايرانية فمن المحتمل جداً أن يكون تاريخ تسميتها عائداً لأصول فارسية قديمة. لذلك ونتيجة للتشابه الكبير بين المعتقدات الايزيدية والزرادشتية اعتمد نخبة من الباحثين على التراث الأفستي /الزرادشتي في تفسيراتهم وتحليلاتهم لدواعي التسمية وخلفياتها التاريخية في الايزيدية.

فينسب بعضهم اليزدية /اليزيدية إلى كلمةٍ «يزد Yasd»وهو اسم منطقة في ايران تعني بالفارسية الله أو الروح الصالحة، حيث انتشرت منها الديانة الزرادشتية وهاجر اتباعها هرباً من الضرائب والجزية المفروضة عليهم قاصدين حلب وسنجار والشيخان وبحيرة وان والقفقاس واتخذوا منها مواطن جديدة لهم. واطلقوا على أنفسهم اسم المنطقة التي رحلوا منها فسميوا :بـ يزديون/يزيديون.

وقد اورد المستر « لايارد Layard «من» توفانيس – Tofanis » المؤرخ اليوناني الذي عاش في القرن السابع للميلاد العبارة الآتية: «أن الإمبراطور هرقليوس خيَّم بجنوده قريباً من مدينة «يزدم» وظن الماجور «راولينصن»«أن يزدم كانت من مدن «حدياب » فيقول «مارتان» قد تكون هذه المدينة أول مكان انتشرت منه الشيعة اليزيدية »[20]

ذهبت مدرسة أخرى إلى ربط الايزيدية بـ لفظةٍ يزت – YazT» أو يازاتا Yazata » في الأفستانية، وياجاتا YazaTa «في السنسكريتية، و«يزد Yazd »في الفهلوية وكلها مفردات لها معان متقاربة ففي الأفستانية تعني الروح المجردة الطاهرة التي تستحق العبادة وبهذا فإن كلمة «ايزيدي» تعني عباد الله.

وقد تحولت هذه الكلمة لاحقاً إلى ايزاد/يازاد. واليازاتات هي مجموعة الملائكة المساعدين لمجموعة «الاميشاسبنتا - Amesha Spentas/رؤساء الملائكة. ومهمة اليازاتات

هي التوسط بين البشر والأرواح الطاهرة /الآلهة، لذا سميت بالمساعدين.

وما يقرب هذا الرأي من المنطق هو تشابه النظام الهرمي لدور الثالوث المقدس (اله الخير المطلق ـ رئيس /رؤساء الملائكة ـ الملائكة العاديون/المساعدون) عند الديانتين الزرادشتية واليزيدية:

في الزرادشتية	في الايزيدية
1 ـ أهورامزادا Ahoramazda /اله الخير المطلق والنور الذي لا بدّ أن ينتصر على اهريمان/اله الشر النسبي في النهاية.	1 ـ الله /خودي/ يزدان الخالق والقادر على كل شيء. وهوخالدٌ في الأزل.
2 ـ مجموعة الأميشاسبنتا Amesha SpenTos أي رؤساء الملائكة (الخالدون الخيرون) الذين خلقهم أهورامزدا للإشراف على أمور روحانية ومادية لاحصر لها وهم يعملون بفعل واحد وعقل واحد.	2 ـ طاووس ملك ـTawus malek /رئيس الملائكة الذي خلقة الله من نوره للإشراف على أعمال الملائكة الأخرين وهو وكيله وشريكه في الكون.
3 ـ مجموعة اليازاتات /الملائكة العاديين أي الأرواح المجردة والطاهرة واليازاتات هم الملائكة المساعدون لمجموعة الأميشاسبنتا وتتوسط الآلهة والبشر.	3ـ مجموعة الملائكة /الآلهة الستة: شيخ شمس /اسرافيل إله الشمس وملك دردائيل/شيخ سن اله اللوح والقلم والروماتيزم الأبيض وسجادين/ عزرائيل إله قاصد الأرواح والمرسل لأخذها وملك ناسردين/شمنائيل إله جلد الرؤوس وملك نورائيل/فخر الدين اله القمر والأمراض التي تصيب الأطفال من جراء ظهور القمر واختفائه وملك ميكائيل /شيخ ابوبكر. وهذه المجموعة من الملائكة/ الآلهة هي مساعدة لـ طاووس ملك الذي يستمد

جبروت نفوذه من الله/خودي بل هو
متجسد في ذاته كما تدعي الأيزيدية

أما القس سليمان الصائغ فقد علل في مؤلفه «تاريخ الموصل» سبب تسمية الايزيديين بهذه التسمية بإعادتها إلى إله كانوا يعبدونه واسمه «يزد أو يزدان» مستنداً بذلك على ما جاء في تاريخ «كلدو آثور» نقلاً عن توما المرجي في القرن التاسع الميلادي الذي ذكر في كتابه «الرؤساء » عن أهالي مدينة «موغان» أنهم كانوا يعبدون صنماً اسمه «يزد» فيقول المؤلف فيما ذكره «توما المرجي» ان أصل تسمية هذه الطائفة بالازيدية على كلمة يزدان التي تعني الإله بالفارسية [21] ولو عدنا الى علم الصدر الايزيدي /الموروث الشفاهي فسوف نلاحظ أن كلمة «ئيزي - Ezi » هكذا تلفظ مخففة ترد في الكثير من أدعيتهم وأقوالهم الدينية. ورغم انها مازالت غامضة في معناها إلى حدٍ ما ولم يتوصل الباحثون إلى رأي قاطع حولها إلا أنها تأتي ضمن سياق تلك النصوص الدينية لتفيد معنى الإله /خودي:

یاره بی توبده یه خاترا دورا سپي یه
عه ردو عه زمان وزه ڤي یه
ئه ومه له کي بیبری یه
سورا سولتان ئیزي یه(لاحظ اللفظ المخفف)
یاره بی تول حالی مه وسونه تی ب پرسي
یه
یاره بی توبده یه خاترادورا زه رە
بایه وئاڤه وئاگره
ئیزي ڤیرا هه فت سوره [22]

ربّ بحق الدرة البيضاء
الأرض والحقل والسماء
والملاك القديم /البريء
سر السلطان إيزي
ربّ لتسال عن حالنا وحال السنة
ربّ بحق الدُرة الصفراء
والهواء والنار والماء
ايزي ومعه الأسرار السبعة(المقصود هم
الملائكة السبعة)

وجاء في دعاء وشهادة الدين (شه هداديني):

سولتان شيخادى پە دشى منه	السلطان شيخ آدي هو ملاكي
شيخوبه كرمه ولا يى منه	والشيخو بكر مولاي
سولتان ئيزى پە دشى منه	والسلطان ايزي إلهي.
هه كه خودى كرنه م ئيزدينه	ايزيدون نحن بمشيئة الله
سه رناڤي سولتان ئيزينه	مُسَمَّون باسم ملاكنا ايزي
ئه ل حه مدوللائه م ب ئول وته ريڤاخو در ازينه(23)	حمداً لله فإنا مؤمنون بديننا وطريقتنا.

إذا فالايزيديون أنفسهم يعيدون تسميتهم إلى إلههم ئيزي Ezi /في أدعيتهم واناشيدهم الدينية لا بل يقولون أن إيزي ما هو إلا إسم من أسماء الله فهو الله ذاته/خودي المطلق المسمّى بألف إسم واسم:

پادشى من يى پە دشه	إلهي هو الله
نه ڤاش چه ندى نه ڤشه	مزين كل النقوش
سلطان ئيزي دزانت كى ل به ره كى لپاشه	السلطان /الملاك ايزي عالم بكل ما مضى وما هو آت
پادشى منى ل وه حد انى يه	إلهي هو الواحد الأحد.
دوستادلى من بى علمى يه	خلاني عارفون به
خله تابى سه دق يه وه يه وه كى پا دشى من پى دڤى يه	جليل في عطائه بلا مقابل وهو المُراد سه دق؟
پا دشي من سور ل سه ما	إلهي هو سر السموات
به رى نه له وح هه بوو نه قه له مه	أزلي منذ لم يكن هناك اللّوح والقلم
پا سلطان ئيزي لباته ئه وسه عه ته ئه وده مه	ملاكي ايزي /إلهي.. !! معكَ يتلاشى الزمان وكأنك في اللحظة عينها
پا دشى منى جه باره	إلهي هو لجبار قدير

ژبا وى هات بوو فرواره | به أُنزل الوحي وكان الفرمان
مه له ك سى بوون بوونه چاره[24] | الملائكة كانوا ثلاثة ثم أصبحوا أربعة.

كما ورد اسم ايزي في نصوص دينيه اخرى بعدٍ ايزي - Ezi متجسداً في ذات الله وأنه من أعظم أسماء الله على الإطلاق:

ئيزي /يزيد هو السلطان بعينه

سمي بالف اسمٍ واسم

اسمه الأعظم هو الله

السلطان يزيد/ئيزي عالم بما يحوي

البحر من مياه

الدنيا أمامه خطوة

يقطعها خلال ساعة

هو الذي أقام عرس آدم وحواء.[25]

تلك هي نظرة الميثولوجيا الايزيدية عن ايزي Ezi كونه الروح الأقدس لإلههم الأعظم /خودي وبناءً على ذلك يصبح ئيزي Ezi متحداً مع ذات الله خودي في علاقة جدلية - لا هوتية ليصبح ئيزي هو الوجه الآخر لذات الله السرمدية.

ونجد اسم ايزي /يزيد في اسطورة الملك «ايزدا - Ezda »و«يزدان - yazdan » جداً من أجداد الايزيدية كما أن يزداني – yazdani قد أطلقت على الايزيديين الأولين. ويربط هؤلاء بهذه التسمية كلمة «ازداي Izdai » التي هي اسم سنجق على شكل رجل معمول من العنب. [26]

إن تسمية أحد السناجق/ الطواويس الايزيدية بـ أزدايي Ezdayi - تظهر لنا جانباً من خلفيات تسمية الايزيديين أنفسهم بـ «أزدايي باك Ezdayi Pak » فهذه اللفظة

تتوارد على لسان بعض الشيوخ والأيبار المُسنين الايزيديين وهي في أساسها لفظة مركبة من كلمتين كرديتين «ئه زدایی - Ezdayi «رأي المخلوق و «باك ـ Pak» أي الباري وحين يقولون : «ئه م ئه زدایی یاکین » فإنهم يعنون بها نحن خلق ا لله الباري وبهذا سيكون مصدر التسمية في الايزيدية/ الأزداية كردياً محضاً.

لذا تعد الايزيدية «من بقايا أقدم المجموعات الساكنة في المناطق التي سكنت فيها القسم الإيراني والهندو ـ ايراني، بمعنى أنهم من أقدم الأقوام الكردية ويسبق معتقدهم أفيستا، لا بل أقدم من (فيدا) الهندي، ولو تمكن اليزيديون من الأحتفاظ بعقائد ما قبل الزرادشتية لكان يمكن اعتبار معتقدهم نموذجاً لجميع الشعوب الهندو ـ أوربية» (27).

● كلمة أخيرة:

رغم قناعتنا بأن الايزيدية هي نسيج متشابك من الإشكاليات كونها كانت على مر التاريخ سفينة بلا ربّان تسبح في بحرٍ من الغموض والأسرار،ولكن هذا لا يعني أن حقيقة هذه الديانة قد انتحرت إلى الأبد دون أن تترك لها أثراً.

فقد اكتشف مؤخراً أحد خبراء الآثار واللغات القديمة (السومرية ـــ البابلية ـــ الآشورية) أن كلمة «ايزيدي » هكذا مكتوبة بالخط المسماري في العهد السومري وهي تعني الروح الخيرة وغير المتلوثين والذين يمشون على الطريق الصحيح. وحسب اعتقاده فأن تاريخ الايزيدية يرجع إلى الالف الثالث قبل الميلاد وهم من بقايا أقدم ديانةٍ كردية من منطقة الحضارات في الشرق» (28).

نحن لا ننكر بأن المسألة لم تُحسم بعد فالكثير من اشارات الإستفهام لا تزال تدق ابواب الايزيدية باحثةً عن الجواب، نظراً لإلتباس تاريخ هذه الديانة ومعتقداتها، وطبعها بطابع السر واللغز. إلا أن اكتشافاً كهذا لا بدّ وأنه سيفتح

الطريق أمام الكثير من الدراسات والأبحاث العلمية الجادة للكشف عن ماهيـة هـذه الديانة وأصولها الأثيولوجية.

وإن دلّ هذا الإكتشاف العلمي على شيء فإنه يدل على قِدم الديانة الايزيدية واصالتها وعمق جذورها في التاريخ البعيد والبعيد جداً.

«مصادر وهوامش البحث»

1 ـ مقدمة د. قسطنطين زريق لكتاب اسماعيل بك جول «اليزيدية قديماً وحديثاً» المطبعة الأميركانية ـ بيروت 1934/ ي.

2 ـ م4 / ص 1164 أ Thyodor Menzel «yazidi » Encyclopedia of Islam

3 ـ نقلناها بتصرف من مصحف رش ـ السفر 53 و 54.

4 ـ د. موفرمان ـ مقاله المنشور في الثقافة الجديدة ـ العدد 243 ـ 1992 تحت عنوان «ضوء على فلسفة الديانة اليزيدية »/ص 110 .

5 ـ أبي الحسن على بن الحسين بن علي المسعودي ـ مروج الذهب ـ م2 / ص 68

6 ـ ابي جعفر بن جرير بن رستم ـ تاريخ الأمم والملوك ـ م1 /ص 354 ـ 360.

7 ـ سعيد الديوه جي ـ اليزيدية ـ المجمع العلمي العراقي ـ 1973 / ص 9.

8 ـ اسماعيل بك جول ـ اليزيدية قديماً وحديثاً ـ المطبعة الأميركانية ـ بيروت 1934/ ص 77.

9 ـ محمد بن عبد الكريم الشهرستاني ـ الملل والنحل ـ م1 / ص 86.

10 - Joseph Isya - Devil worship The Saered Books of Th Yezidis (Boston) 1919 P. 76

11 ـ المصدر ذاته /ص 78. نقلاً عن كتاب «مصباح العلوم في معرفة الحي القيوم » لـ «أحمد بن محمد الرصاص المتوفي سنة 655 هـ ـ 1257 م.

12 - Thyodor. MENZEL. Yazidi ,Encyclopedia of Islam - London - Iv . p1164 Leiden (1913 - 1938).

13 - Myriam Harry , Les Adorateurs de Satan (Paris 1937) p.p 35

14 ـ مرجع سابق ص 1164 آ Th. Menzel

15 ـ د. سامي سعيد الأحمد ـ اليزيدية أحوالهم ومعتقداتهم ـ بغداد 1971 ـ 1ج /ص 41.

16 ـ المصدر ذاته /ص 39.

17 ـ الشمسية في التاريخ ـ لغة العرب ـ م9 ـ ج 30 ـ 1931/ص 161 وما بعدها.

18 ـ المصدر ذاته /ص 161.

19 ـ من دعائي الصبح والمساء (من بين مجموعة أدعية فقير حجي المسجلة في كاسيت وهو ذو معرفة

واسعة بعلوم الدين الايزيدي) .

20 ـ صديق الدملوجي ـ اليزيدية ـ الموصل 1949 / ص 161 وما بعدها.

21 ـ المصدر ذاته / ص 162.

22 ـ من دعاء المساء (بمجموعة أدعية فقير حجي المار ذكره).

23 ـ من دعاء شهادة الدين (المصدر ذاته).

24 ـ خدرى سليمان ـ كوندياتى (تقاليد القرية/ جانب انثروبولوجي) بغداد 1985 ـــ دعاء الشيخو بكر «قه ولى شيخوبه كر»/ ص 99.

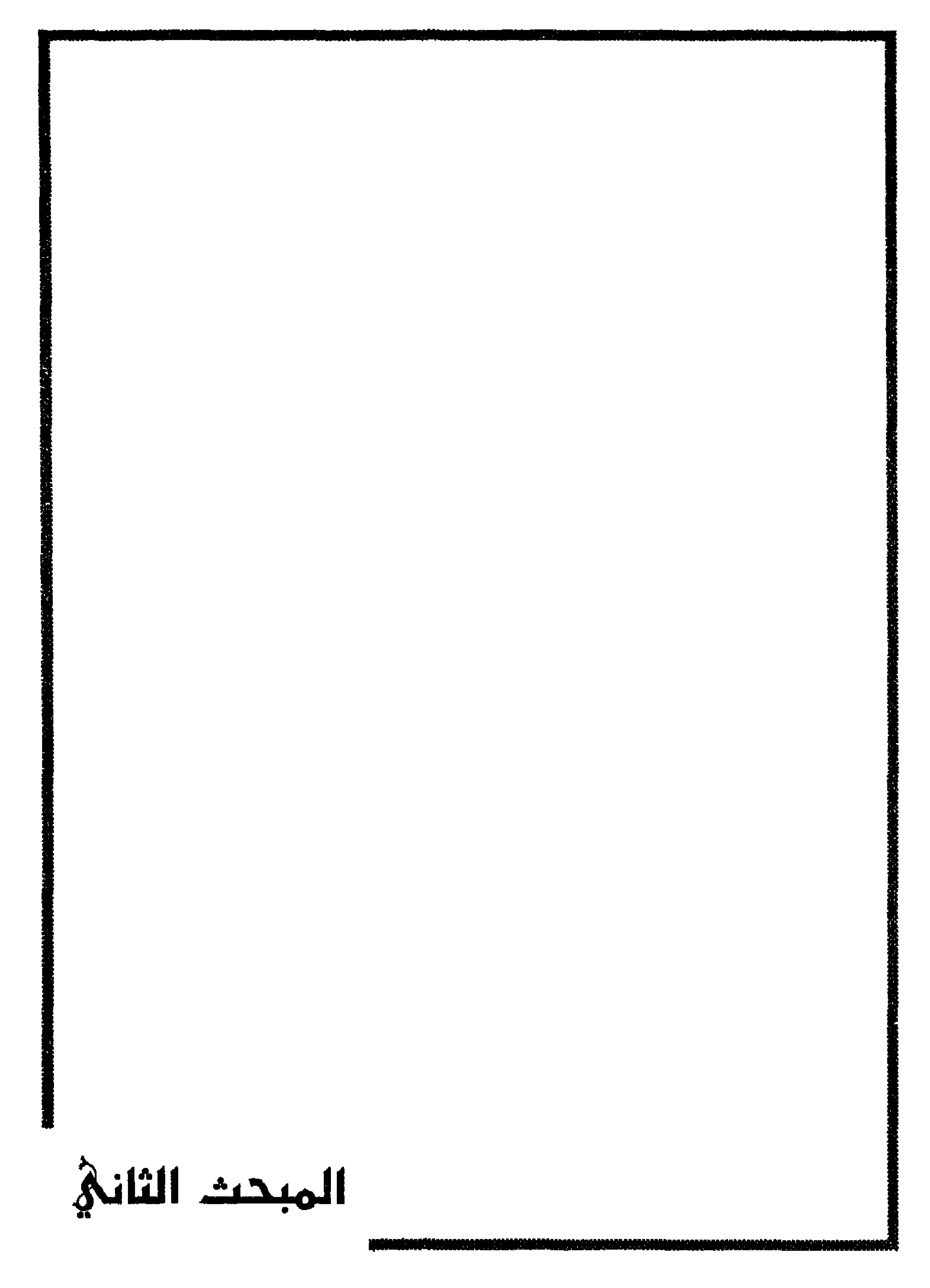
25 ـ د. خليل جندي ـ بحثه المنشور في الثقافة الجديدة عدد 205 ـ تحت الاسم المستعار شيخ علي /ص 83.

26ـ مصدر سابق /ص 1164 آ ....Th. MENEL

27 ـ البحاثة والفيلولوجي الكردي مسعود محمد ـ ريشه يه ك له ريشالى زمانه كه مان/ جذرمن جذور لغتنا/ بمجلة .نووسه رى كورد ـ بغداد 1986 العدد 6.

راجع أيضاً د. خليل جندي ـ نحو معرفة حقيقةالديانة الايزيدية ــ الحلقة الأولى ــ آينبياك 1992/ ص 7 وكذلك خدرى سليمان و سعده للاشيخانى ـ شيخان وشيخان به كَى/ الشيخان والشيخان بكي ـ بغداد 19 / صII .

28 ـ من نشرة باللغة الألمانية كتبها الباحث الأثري والخبير باللغات القديمة (السومرية والبابلية والآشورية) «لاقاري نايو» عن الايزيدية مقدمة إلى الجهات الألمانية المسؤولة عن شؤون اللاجئين والشعوب المهددة بالإنقراض /الناشر تاريخ الشرق القديم ـ مركز الأبحاث لعلوم الآثار واللغات ــ سلالة الشعوب واللاهوت ـ مدينة فورنشتاين ـ المانيا 1992/8/7 (نقلاً عن د. خليل جندي ـ نحو معرفة حقيقة الديانة الايزيدية : الحلقة الأولى /ص 4 وأيضاً بمجلة سه هلدان التي نشرت البحث نفسه في عدديها 4 و 5 /1993).



المبحث الثاني

طاووس ملك .. أكبر آلهة الايزيدية

سنحاول من خلال هذه الدراسة سبر أغوار الديانة الايزيدية من زواياها المظلمة محاولين بذلك فك بعض من رموز هذا المعتقد شبه اللغز ضمن إطار التفكير الميثولوجي ـ الديني الناتج عن خيال الإنسان الإسطوري وملكاته الخرافية.

لا نبتغي من خلال هذا البحث الركون إلى أسسٍ ايديولوجية /عقائدية للمساس بالمقدسات والدين باعتباره ظاهرة نقية خالصة. وإنمامجال بحثنا هو نبش الميثولوجيا الايزيدية وتتبع حركة تطورها التاريخي ضمن سياق ميثولوجيا الأديان القديمة عموماً والهندو إيرانية منها خصوصاً. ذلك لأن التفكير الميثولوجي كان يشكل دوماً قوة حضارية خلاقة يغرف منها الفكر الديني والتأمل الميتافيزيقي والتعبير الفني باستمرار.

وهنا تحديداً يكمن سر هيمنة الإسطورة على الفكر الديني عبر التاريخ «لأن تغيراً في الطقوس ـ على حدِّ تعبير الدكتور غانم هَنا ـ قد حوّل الإسطورة إلى دين، وبمقدار ما حملت الطقوس صيغ تأثير التغيرات الحادثة في المجتمع بمقدار ذلك تبدلّ التصور الإسطوري ليصبحَ لدى الإنسان عقيدة دينية عن ذاته، عن الآخر، وعن الطبيعة ».[1] إن الايزيدية شأنها كشأن جميع الأديان القديمة الأخرى، تعتقد

بظاهرة التعدد الألوهي (PolyTheism) حيث تؤمن بوجود عدد كبير من الآلهة الجديرة بالعبادة والتقديس. كما تعيش حالةً من الـ«هينوثيزم» «Henotheism» أي الوحدانية المشوبة ـ على حد قول الدكتور خليل جندي ـ وتعني الإعتقاد بوجود إلهٍ واحد وهو الأكبر والأقوى. دون إنكار قدسية آلهةٍ أخرى تسبح في فلكه.

ولهذه الظاهرة علاقتها المباشرة مع تقدم الوعي الحضاري ــ الثقافي لدى الإنسان الذي لا بدَّ وأن يسهم في اقتحام اسرار الطبيعة لفك رموز شيفرتها. فتخرج الكثير من الظواهر الطبيعية من دائرة السر المقدس لتتقلص أدوار الآلهة التي كانت تمثلها. وتبدأ هيبتها بالإنهيار والتلاشي.

«لذا فقَدَ الآلهة وظيفتهم الطبيعية والمباشرة في حياة الإنسان تدريجياً مع اقتراب الإنسان من وعي ذاته كائناً روحياً. وبدأ يظهر هذا التغير منذ القرن الخامس قبل الميلاد حيث نراه يحمل مسؤولية فعله وقراره ويحدد الإله الذي يشعر تجاهه بالمسؤولية من منظور العدل والصحة والجودة. ويوجه فعله بموجب ذلك عملاً بفكره ووعيه» (2).

تسبح الايزيدية في سماء عددٍ كبير من الآلهة الذكرية منها والأنثوية مثل:

شيخ شمس / إله الشمس. و ممي شفان/ إله الغنم. و ملك فخر الدين/ إله القمر والأمراض التي تصيب الأطفال جراء ظهور القمر واختفائها. وشاهسوار/ إله الفروسية.

بيرافات/ آلهة الفيضانات والطوفان وكانياسبي/ آلهة الينابيع و ناهيد ـ آناهيتا / آلهة الحب والحياةالجارية... وغيرها. (3) الى جانب الله / خودي ـ يزدان الواحد المطلق اللامتناهي في الوجود و «طاووس ملك» كبير الملائكة الستة.

إن فكرة «طاووس ملك» كانت ولا تزال مثاراً للنقاش والجدل بين الباحثين

والمستشرقين في الأديان القديمة عامةً والايزيدية على وجه الخصوص. نظراً لمكانة ودور«طاووس ملك» في التراث الايزيدي ـ هذا من جهة ـ ولغموض أصول هذه الفكرة والتباس خلفياتها الإسطورية من جهة ثانية.

وما يمكن قوله هو إنها ظاهرة /فكرة قديمة قِدم ظهور الأفكار الدينية وتبلورها حتى كادت ان تكون من أكثر المسائل تعقيداً وتشابكاً في الميثولوجيا الايزيدية بتداخلها المرتبك مع ميثولوجيا الأديان القديمة الأخرى لا سيما الهندوإيرانية منها.

فمن هوهذا الملاك / الإله... وما هي مكانته ودوره من وجهة نظر الايزيدية أولاً ثم من وجهة نظر الأديان الأخرى ثانيا؟.

متى وكيف ظهرت هذه الفكرة وتطورت ميثولوجياً إلى أن اخذت طابعها الديني / اللاهوتي ضمن منظومة المعتقدات الايزيدية ؟ ؟.

تلك هي الخطوط العريضة بل الجوانب الخفية التي سنسلط الأضواء عليها من خلال بحثنا هذا.

* طاووس ملك بين انطوائية الدين وتشعّب الإسطورة:

الايزيديون طائفة منزوية على نفسها في تداولهم لتراثهم الديني . فيكتمون اسرار ديانتهم عن الآخرين لئلا يعصَوا أو يحيدوا عن الطريق الذي خطه لهم ملاكهم الأكبر /طاووس ملك. وهناما تؤكد عليه الجلوة وهي ـ أحد كتبهم المقدسة ـ في السفر الثامن من الفصل الرابع إذ تقول : «يا أيها الذين تبعتم وصاياي انكروا الأقوال وكل التعاليم التي ليست من عندي ولا تذكروا إسمي وصفاتي لئلا تُذنبوا لأنكم لستم عارفين بما يفعله الأجانب / أي معتنقو الأديان الأخرى/». (4)

إن الإنطوائية في المعتقدات هي ظاهرة تاريخية قديمة في الفكر الديني /الميثولوجي . فالهندوسيون كانوا يعدون الهندوكي الحقيقي هو المولود من أبوين هندوكيين وكانت الهندوسية ديانة قومية لم تستهدف غزو مساحات القوميات الأخرى. إلى أن جاء بوذا مبشراً بتعاليمه الجديدة / القديمة محطماً الحواجز القومية في الدين فأصبحت البوذية عقيدة عالمية لكل البشر. وهكذا كانت الزرادشتية أيضاً. فبالرغم من الأصل الميدي /الكردي لزرادشت ونشره لتعاليمه إنطلاقاً من بلاط الإمبراطورية الإخمينية على يد كورش الإخميني لتصبح الزرادشتية ديناً رسمياً للدولة. بالرغم من ذلك فإن الزرادشتية لم تخيّم بتعاليمها ديناً على الأكراد وحسب وإنما شملت جميع شعوب إيران بل انتشرت خارج ايران لتبشّر شعوب الهند واليونان وتوران. غير أن المجوسية ـ وهي أقدم ديانات بلاد فارس ـ لا تزال تصرّ ـ كالايزيدية تماماً ـ على طابعهاالإنطوائي . إن هذا الطابع الإنطوائي الذي يستوجب كتم الموروث الديني تمَّ تناقله بين افراد الطائفة الايزيدية من جيلٍ إلى جيل. ولكن ما هي الأسباب التي تقف وراء هذه الإنطوائية / الموت البطيء:

1 ـ الظروف التاريخية الصعبة التي مرت على الايزيديين من جراء تمسكهم بديانتهم فقد تحمّلوا في تكونهم الشاق والطويل أشد أنواع العذابات والإضطهادات ومردُّ ذلك يعود إلى:

أ ـ تمسكهم الشديد بحريتهم واستقلالهم.

ب ـ تمنعهم من نشر كتبهم الدينية . الأمر الذي يخرجهم بنظر الحكام المسلمين في عهد الإمبراطورية العثمانية عن حرمة أهل الكتاب.

جـ ـ ما ينسب إليهم من عبادة الـ ش / إبليس وغير ذلك مما دفع الحكام الأتراك والقبائل الكردية المسلمة والتي كانت تحيط بهم إلى إضطهادهم واستباحة

مواطنهم تحت راية الإسلام. وكانت نتيجة ذلك مذابح وإضطهادات وفرمانات سني: 1790/فرمان اسماعيل باشا «حاكم العمادية» على ايزدية الشيخان عام 1753/ فرمان سليمان باشا «والي بغداد» على منطقة جبل سنجار عام 1792/ فرمان محمد الجليلي «والي الموصل» على ايزيدية سنجار والمناطق المحيطة: عام1803/فرمان علي باشا إذ حاصر سنجار وهدم قرى الايزيدية ونهب ممتلكاتهم . عام 1832/ مذبحة الصوران في منطقة الشيخان التي تمت على أيدي الأمير محمد باشا الراوندوزي المعروف بـ ميري كور عام 1834/ فرمان حافظ باشا على جبل سنجار إذ أباد أكثر من ثلاثة أرباع سكانه. عام 1835/ فرمان محمد رشيد باشا أيضاً على ايزيدية سنجار عام 1809/ فرمان سليمان باشا على المناطق الشمالية من جبل سنجار عام 1838/ فرمان الاينجة بيرقدار المعروف بقاطع الرؤوس على ايزيدية سنجار عام 1893 / فرمان الفريق عمر وهبي باشا المعروف لدى الايزيدية بـ فريق باشا على ايزيدية الشيخان حيث فتك بأموالهم واعراضهم و انتهك مقدساتهم ونهب طواويسهم عام 1894/ فرمان بكر باشا على سيمار وأيضاً وغيرها الكثير من الفرمانات التي قتل فيها عدد لا يستهان به من الايزيديين إذ نهبت ديارهم واستبيحت نساؤهم.[5]

ليس هذا وحسب وإنما استبيحت دماؤهم وصدرت فتاوى كثيرة بمشروعية قتلهم من قِبل منظّري ورجال الدين الإسلامي .«ويظهر أن فتوى أحمد بن مصطفى أبو السعود العمادي (الذي عاش حوالي 896 ـ 982هـ) المفتي المعروف للدولة العثمانية أزمان السلاطين سليمان القانوني وسليم الثاني هي الأولى من هذه السلسلة من ناحية، واتخذت من ناحية ثانية نموذجاً للفتاوي المتعددة التي صدرت بحقهم في السنين التاليات. ولما كان أحمد بن مصطفى هذا هو المفتي الرسمي للدولة فقد كان افتاؤه دون شك يمثل اعلان حرب دينية على السلطان تنفيذها ضد اليزيديين».[6]

2 ـ الطبيعة اللاتبشيرية التي تتسم بها الايزيدية. فالايزيديون يؤمنون بنظرية العرق الصافي ويرون أنهم ولِدوا منذ بدء الخليقة أيزيديين من سر ملاكهم الأكبر /طاووس ملك ونوره «وقال الرب العظيم يا ملائكة إن خلقنا آدم وحواء وجعلناهم بشراً ويكون من سر آدم شهر بن جبر وأيضاً منه ملة على الأرض تسمى ملة عزازئيل أعني طاووس ملك وهي ملة الايزيدية»(7).

3 ـ وجود الكثير من المعتقدات الغامضة / المربكة والتي لم تخرج من دائرة اللغز بعد. ليس لدى المهتمين بهذه الديانة ودارسيها فحسب بل حتى لدى اقطاب الفكر الديني من الأبيار والشيوخ والأمراء الايزيديين أنفسهم. وتعدُّ الفكرة التي نحن بصددها «طاووس ملك» واحدةً من تلك الألغاز التي يصعب على المرء فهم ماهيتها اللاهوتية/ الميثولوجية.

إن فكرة غامضة ومتشابكة كهذه لا شك إنها تحتاج إلى دراسات وأبحاث تعيدها إلى جذورها الإسطورية والأنتروبولوجية(علم دراسة الإنسان) والأثيولوجية (علم دراسة الأسباب والبدايات بشكل عام) الأساسية للتوصل إلى بداياتها الأولى ونتمكن من تأويلها ضمن مجال نظرية الرمز. ذلك لأن جميع الأساطير في النهاية ترجع إلى اسطورةٍ واحدة هي دورة الطبيعة في فصولها.

بقليلٍ من التمعن والتتبع لحركة تطور مسار الآلهة تاريخياً سنصل إلى استنتاجٍ مفاده:

هو أن طاووس ملك باعتباره فكرة ميثولوجية ـ لاهوتية «يعبر عن صيغة مرحلية في الإنتقال من الإسطورة إلى الدين، يوسط فيها شخصاً أو عنصراً أو قوة بين الله والإنسان جاعلاً الفرد شخصاً بجعله الوسيط إلهاً»(8).

إن فكرة «طاووس ملك» في الميثولوجيا الايزيدية تتشابه إلى حد ما فكرة

يسوع المسيح على أنه ابن الله كما جاء في الإنجيل. فالايزيديون يعتقدون بأن «طاووس ملك» منبلجٌ من ذات الله بل هو نوره. أما المسيحية فتنظر الى المسيح باعتباره الروح القدس المنبثق من الله المطلق. «فقالت مريم للملاك كيف يكون هذا وأنا لستُ اعرف رجلاً فأجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحلُّ عليك وقوة العلي تظللك فلذلك أيضاً القدوس المولود منكِ يدعى ابن الله» (انجيل لوقا 1 : 34 - 35).

فولادة المسيح كانت من اندماج الروح القدس /الله مع ذات مريم/ الإنسان. أما «طاووس ملك» فخلقهُ الله من ذاته / النور الإلهي وفي ذاته/ الله. «أول يوم خلق فيه هو يوم الأحد وخلق فيه ملكاً اسمه عزازئيل وهو طاووس ملك رئيس الجميع» (مصحف رش ـ الفصل الأول ـ السفر الثاني)[9] وبذا تكون عبادة «طاووس ملك » عند الايزيديين مشابهة لفكرة السمو في علم الجمال ولا يمكن ان يرى ويؤمن بهذه الفكرة إلا أولئك الذين يؤمنون ويستمتعون بهذه الفكرة نفسها وليس لسبب آخر منفصل عنها، وتعتبر الايزيدية نفسها الشعب (الطائفة) الذي تمكن من رؤية هذه الفكرة الجمالية [10]

فطاووس ملك هو انبعاثٌ من ذات الله. ملازم لحفظ العوالم والخلق وصيانتها، له القدرة الإلهية الكلية على الملائكة والجن والناس فهو إله أزلي أبدي كأزلية الله نفسه وهو رئيس الملائكة الستة:

1 ـ ملك دردائيل/ شيخ سن ـ إله اللوح والقلم والروماتيزم «بابي سيي» خلق يوم الإثنين.

2 ـ ملك اسرافيل /شيخ شمس/ شيشيمس ـ إله الشمس والخير والأرزاق وهو أكبر الآلهة الستة . خلق يوم الثلاثاء.

3 ـ ملك ميكائيل /شيخ أبو بكر/ شيخو بكر وخلق يوم الأربعاء.

4 ـ ملك عزازئيل /سيجادين ـ إله قاصد الأرواح، خلق يوم الخميس.

5 ـ ملك شمنائيل ـ شمخائيل/ ناسردين ـ إله جلد الرؤوس «جه لادي سه را» خلق يوم الجمعة.

6 ـ ملك نورائيل /فخر الدين ـ إله القمر والأمراض التي تصيب الأطفال من جراء ظهور القمر أو اختفاءه ويُسمى احد هذه الأمراض عند الايزيدية بـ «كيماهه يڤي»أو«يابلند»وتعني ضربة القمر. وخلق هذا الملاك يوم السبت.

إن هذا الإعتقاد بالأرباب الستة ما هو إلا صدى للإعتقاد الزردشتي الراسخ في الخالدين الأقوياء/ الأميشا سبنتا Amescha Spen - Tas) الذين خلقهم من نوره وهم:

(فهومانا ـ Vohumanah) وهو الفكر الطيب و (أشافاهيشتا ـ Asch : VahischTa — خير الحقائق) و (خشاترافيريا ـ KhshaThra Virya ـ السلطة الواجبة) و(آرميتي Armiti - الخضوع) وهورفاتات Hourvatat الكمال والصحة) و(اميرتات ـ AmereTat ـ الخلود) وسابعهم هو بالطبع (سبنتا مينو SpenTa Mainu) [11]

إن مجموعة (الأميشا سبنتا ــ Amescha - SpenTas) والتي تعني «الخالدون الخيرون» هي رؤساء الملائكة الذين خلقهم آهورا مزدا إله النور للإشراف على امور روحانية ومادية لا حصر لها، وهم يعملون بفعلٍ واحد وعقل واحد.

ولكن ما يلفت النظر في فلسفة الديانة الايزيدية هو طرافة رؤيتها لمفهومي الخير والشر.

فالاديان السامية الثلاث /اليهودية ـ المسيحية ـ الإسلام/ ترى بأن مشيئة الله المطلق الخيرة تتقابل مع نوايا ش/ ابليس الشريرة رغم أن الله إذا أراد شيئاً يقول له:

كن فيكون.

وكذلك الأمر في الزرادشتية إذ تقر بالثنوية اللاهوتية ظاهراً «وجود الهين احدهما للخير ـ آهورامزدا. والآخر للشر ـ اهريمان » إلا أنها ثنوية اخلاقية باطناً لأن الصراع سيحسم ـ حسبما يقوله زرادشت ـ لصالح آهورامزدا وسينتصر الخير على الشر في النهاية.

وكان «ثيامات TiamaT» في عقائد ما بين النهرين مصدراً لكل الشرور، لتودي بالمخلوقات والآلهة الخيرة إلى التهلكة. وكانت كل المهالك تُنفّذ بإمرة كَنجو ـ Gengo/ الوحش العملاق الذي وعدْته تيامات بالزواج منها وتولي زمام الملك إذا ما هزم آلهة النور / الخير . حتى ينبثق مردوك Mardok من بين جموع الآلهة الخيرة ويتهيأ للصراع مع تيامات مقابل الإعتراف به كأكبر وأعظم إله للنور في حال هزيمة تيامات / آلهة الشر. وبالفعل تمّت هزيمتها أثناء المباراة تحت قبضات مردوك الإلهية ليصبح أعظمَ معبودٍ لمدينة بابل.

أما الايزيدية فتقول برأي مختلف تماماً عمّا سبق إذ ترى بأن الخير والشر كلاهما يكمنان في ذات الله وما على الإنسان إلا الإستجابة لنداء الضمير الأخلاقي لِ الأنا المثلى كي ينشد للخير ويبصق في وجه الشر.

وهناك أمثال أيزيدية دارجة بهذا الصدد: «ياره بى خيرا بدى شه را وَرگه رى» وتعني إلهي ارزقنا بالخير ونجنا من الشر. وأيضاً «خير وشه رهه ردو ژي ده رگه هيد خودى تين» أي أن الخير والشر كلاهما ينبعان من باب الله.

إن مردَّ هذا الإختلاف في الرؤية اللاهوتية يعود إلى التباين الميثولوجي في معالجة فكرة الشر تاريخياً وصراعها الدامي (والمنتحر أحياناً) مع الخير .

فالايزيديون يعتقدون بثنوية الخير والشر الإلهيتين الصادرتين من الواحد غير

المحدد واللامتناهي. لهذا يختلفون مع غيرهم في تناولهم لقصة الخليقة وأيام التكوين الأولى إذ يقولون «هذا ما يَدعمه مصحف رش»: خلق الله «طاووس ملك» من سره العزيز/ نوره لأول مرة قبل أن يخلق الآلهة/ الملائكة الستة الآخرين، وبما أنه مخلوق من نوره / ذاته. فكان لا بد أن يتمسك بوصيته /الله وألاّ يسجد إلا له. وبعد أن خلق الله الآلهة / الملائكة الستة الآخرين وسلّم أمرهم إلى «طاووس ملك» ليصعد بهم إلى السموات، حينها أمر الله «طاووس ملك» كي يهبط إلى الأرض ويجلب منها حفنة من التراب، ففعل . ثم صنع الملائكة منه هيكلاً فنفخ ا لله فيه الروح وسماه بـ «آدم».

بعدها طلب الله من الملائكة / الآلهة السجود لآدم فسجدوا كلهم ما عدا «طاووس ملك»، حينها سأله الله عن سبب عدم سجوده فأجاب: كيف أسجد لغيرك وأنت الذي أوصيتني بألاّ أركع إلاّ لجلالتك. ثم كيف اسجد لآدم الذي هو من تراب وأنا مخلوق من نورك؟.

لذلك أكرمه الله ورفع من شأنه لأنه لم ينسَ وصيته، وكافأه بجعله رئيساً للملائكه ووسيطاً بينه وبين عباده فبات أزلياً في مملكة الله.

إذا كانت هذه الرواية ترى بأنه قد تمت مكافأة الله لـ «طاووس ملك» مباشرةً بعد اجتيازه امتحان الإختيار بين مشيئة الله وأمره، وبتعبير أدق بعد انصياعه للمشيئة الإلهية التي لا بدَّ أن تُنفّذ كما يجب أن تكون، فهي واقعة بالضرورة. عصيانه للأمر الإلهي الذي إما ينفذ ويطاع أو ينهى عنه فيُعصى، ففي الوقت ذاته، نسمع روايةً أخرى تقول بأن مكافأة الله لهذا الملاك جاءت بعد محنةٍ طويلة دام فيها سبعة آلاف سنة وبعدها تحنّن الله بـ «طاووس ملك» ورقّ له قلبه فتوّج مأساته بالعفو عنه وجعلهُ قريناً له وشريكاً معه في ملكه. تقول الرواية:

«لم يكن طاووس ملك في بداية أمره سوى ملاك كغيره من الملائكة /الآلهة الستة العادين. وحين فرض الله طاعته على ملائكته طغى «طاووس ملك» من بينهم واستكبر على خالقه فأوداه الله إلى نار جهنم وأبقاه فيها لمدة سبعة آلاف سنة. ظل يقاسي خلالها شتّى أنواع الذل والعذاب والحرمان وصار طاووس ملك يبكي وينوح بمرارة على حالته لما حلَّ به من محن وآلام كان بغنى عنها حتى امتلأت من دموعه سبعة جرار فاستعطف به الله ورق له قلبه واخرجه مما هو فيه وادخله الجنة. بيدَ أنَّ الملائكة الباقين ما برحوا يهزأون به ويسخرون منه فشكاهم إلى الخالق إذ لم يتوان في ذمهم ولعنهم ومعاقبتهم فيما قرَّب «طاووس ملك» من عالمه بأن جعله شريكه في ملكه ووكيله على الأرض ليشرف على مملكة البشر فكانت نعمَ المكافأة».

إلا أن اعتقاد الايزيدية بكون «طاووس ملك» إلهاً للخير المطلق قد قلصَّ من دور هذه الرواية في التراث الايزيدي إلى حد عدم الأخذ به أحياناً. فـ «طاووس ملك» وهذا ما يؤكده «منزل MENZEI» هو رب الخير وإن كان هو ش / إبليس نفسه، واليزيدية لا تعتقد بأن الله قد عفا أو سيعفو عنه.

ولو عدنا إلى عهودٍ تاريخية سالفة ووقفنا مُثقّفين على أرضية معتقدات بلاد فارس القديمة (ولا تزال بعض تلك المعتقدات حيةً ومستمرةً حتى اليوم) فسوف نتلمس «بان لظاهرة إله السماء (وهو أكبر آلهة بلاد فارس القديمة) الخاصة وجه الشبه مع ظاهرة طاووس ملك لدى الايزيدية، حيث يحمل نفس خواص إله السماء أو آهورامزدا . كما أن هناك تطابقاً في واجبات وخواص طاووس ملك وميثرا. وقد أجرى بعض العلماء بهذا الخصوص كشفاً لخطوط التشابه بين طاووس ملك وميثرا على نطاق لاهوتي (ديني) بحت (12).

أما د. سامي سعيد الأحمد فينظر إلى هذه المسألة من منظار زردشـتي بحـت إذ يقول:

(قديكون «يزدان» في الإعتقاد اليزيدي يمثل «زرفان /Zervqn» في الزردتشـية المتأخرة والذي انبعث منه كـل مـن آهورامـزدا واهريمـان رب النـور ورب الظلمـة (الخير والشر)، فـ «زرفـان» الغـير محـدود والمطلـق قـد نتـج عنـه ربّـان متسـلطان على الكون لهما سلطاناهما وعالماهما. آهور رامزدا غير المحدود والمطلـق واهريمـان المماثل له.

لذا وفي الوقت الذي لا يصدر من الأول إلا الخير والطيب يكون الثاني أساس الشـرور والآثـام والمصـائب في هـذا العـالم. وإذا كـان هـذا الفـرض صحيحـاً فـإن آهوررامزدا يكون هو طاووس ملك ولكن اهريمان(عنكار، ش) أح له ورب مثلـه تلزم عبادته وإن يكن مستقلاً عن آهورامزدا ولكنه يشكل معه وابويهما «زرفـان» ثالوثاً سماوياً، وهـم مستقلون ولكل منهم ذات خاصة وبنفـس الوقـت ذات واحـدة في الثالوث الذي يجمعهم) (13)

ولكن الايزيدية لا تعتقد بإله الشر كذات مستقلة لعـدم تبلـوره إلى ربٍ قـائم بذاته لديهم . سيما وأن الايزيدية لاترى في لفظه «ش/ إبليس خه به را كَونه ه»أي لفظة الخطيئة» إلا إسماً غير محببٍ فيه تمَّ إلصاقه بملاكهم الأكبر /طاووس ملك وهذا ما لا يليق بمقامه ومركزه السماوي حسب اعتقادهم.فـ «طـاووس ملـك» هـو إلـه للخير المطلق وليس من الجائز اخلاقياً أن نقابل الخير المطلق بنواياانا الشريرة.

وبالرغم من أن زرادشت نسج أفكاره على أرضية الصراع بين فكرتـي الخـير والشر والتضاد المستنزف بينهما من الناحية الفلسفية، إلا أن الزرادشتية كانت ديانةً توحيدية مـن الناحيـة اللاهوتيـة. لأن الصـراع حسـبما يعتقـده زرادشـت سينتهي

لمصلحة آهورامزدا، كونه إلـه للخير المطلق عكس أهريمان الـذي هـو إلـه للشر النسبي، فهو زائل. وهنا يظهر التشابه الكبير بين آهـور رامـزدا وطاووس ملـك، فكلاهما إلّهان للنـور ومصـدران الخير المطلق ويحكمـان الكـون بعالميـه الأرضـي والسماوي.

لذلك نختلف مع الأستاذ العلامة محمد أمين زكي في رأيه القائل: «أن اليزيدية تعدُّ مبدأ الخير زائلاً بعد حكم مقداره ألف سنة وهذا أجلٌ محدود. وإن إلهي الخير والشر يقتتلان بعدها قتالاً مريراً ولا يعرف نتيجة هذا القتال ومن سيربح فيه ولكن اليزيدية ستكون مطمئنةَ البـال، لا تخاف العاقبـة ولا تخشى النتيجـة لأنها عبـدت الإثنين» (14).

واختلافنا مع هذا التفسير يعود إلى:

1 ـ عدم وجود مثل هذه الثنوية الإلهية بطابعها المتبلور في التراث الايزيدي.

2 ـ إن عبادة الله في المعتقد الايزيدي تنبع من كونـه مجسـداً للخير والشر في آن واحد. «ياره بي خيرا بدى شه را وه گَـه رى ـ إلهـي أرزقنـا بالخير ونجنـا مـن الشر» وكذلك«خيروشه رهه ردوو ري ده ركَه هى خوَدى تين ـ الخير والشر كلاهما ينبعان من باب الله»

ويقول الشيخ عدي بن مسافر في هذا الصدد كلاماً مأثوراً:

«لو كان الشر بغير إرادة الله لكان عاجزاً. ولا يكون العاجز إلهاً لأنه لا يجوز أن يكون في داره ما لا يريده كما لا يجوز أن يكون فيها ما لا يعلم به».

3 ـ ضمور إله الشر وبقاؤه في الرحم الايزيدي دون ولادة.

4 ـ إن عبادة الايزيدية لـ «طاووس ملك» وتقديسـهم لـه تعـود لكونـه إلهـاً للخير المطلق فكيف ستعتبر الخير زائـلاً بعد حكـم الـف سـنة، سيما وأن «طـاووس

ملك» هو المتحد مع ذات الله الموجود اللامتناهي في الكينونة. ثم أننا لم نعثر في التراث وعلم الصدر الإيزيديين على رواية كان إله الشر بطلها لتسلم زمام العالم بعد زهاء الف سنةٍ من الصراع مع إله الخير.

بالرغم من عدم نفينا لفكرة الثالوث السماوي الذي أشار إليه الدكتور الأحمد، إلا أننا نعتقد بأن حضور عنصر الشر في هذا الثالوث هو حضورٌ متنحٍ، كاله غير متبلور، مقابل عنصر الخير وحضور «طاووس ملك» الراجحُ كالهٍ جدير.

لذا فالثالوث الأقدس والأكثر تبلوراً ووضوحاً في الايزيدية هو المتمثل في / الله - طاووس ملك - الشيخ أدي «عدي»/. وفي الوقت الذي نرى فيه لكلٍ منهم ذاتاً خاصة ومستقلة أحياناً نراهم ذات متحدة في هذا الثالوث أحياناً أخرى.

فـ «طاووس ملك» بكوّن ذاتاً مستقلة لأن الله خلقه ونصبه رئيساً للملائكة، ويكوّن ذاتاً متحدة مع ذات الله لأن الله خلقه من نوره؛ بل هو إسم من اسمائه حسبما يقول الايزيديون. وفي بعض أدعيتهم وتراتيلهم لا يتوانَون في دمج ذات الله مع ذات «طاووس ملك».على أنها ذات واحدة لا يجوز الإنفصام فيها. وأكثر الأدعية تجلياً لهذه الظاهرة هو «دعاء طاووس ملك». فكل الصفات والخواص والقدرات التي وردت في الدعاء - وهي لطاووس ملك بالطبع لأن الدعاء مسمى باسمهِ - تنطبق أيضاً على ذات الله اللامتناهي في الأزل.

ياره بى تو مه له كى مه لكى جانى	ربٌ يا من تأنس به الروح ملاذاً
تومه له كى مه لكى كه ريمى	إنكَ ملك الملك الكريم
توزْعه ئةزه لدايي قه ديمى	قديمٌ أنت منذ الأزل
يا ره بى توخوداوه ندى سه فه رى	ربٌ إنك ربّ السموات
توخوداوه ندى مه هو مه رى	إله الشمس والقمر
توخوداوه ندى چه ندى ئومه رى	ربّ الخلق أجمعين

توخوداوه ندى عه تابى	إنك رب العطاء
ياره بى تو خودايى	إنك الله (15)

وتنطبق الصورة ذاتها على الشيخ آدي /عدي أيضاً، فهو يشكل ذاتاً مستقلةً باعتباره كان شيخاً زاهداً كرس حياته في نشر افكاره ودعوته بين الايزيديين. كما يشكل ذاتاً متحدةً مع «طاووس ملك /الله» بتقمصه روحه. إذ يقول الشيخ عدي:

وأنا الذي اسكنت آدم جنتي

وأسكنتُ نمرود ناراً مهلكة

وأقول بأني فردٌ صمد

أخلق وأرزق من أشاء

أنا عدي الشامي بن مسافر

قد خصني الرحمن بالأسماء (16).

إن فكرة الثالوث المقدس عند الايزيدية تتقاطع مع فكرة الله والتثليث في الفكر الهندوسي الذي ظهر في فترة تاريخية متأخرة من تطور هذا الفكر. فمن المعروف أنه ليس لهذا الثالوث ذكر في الفيدا (17) «ففكرة توحيد الآلهة في إله واحد هي فكرة قديمة وربمّا تكون عائدة إلى القرن التاسع قبل الميلاد، حين وصل فكر الكهنة الهنود إلى إبراز هذه النتيجة التي تقرب من التوحيد أو تصل إليه، فقد جمعوا الآلهة في إله واحد وقالوا إنه هو الذي أخرج العالم من ذاته، وهو الذي يحفظه ثم يهلكه ويرده إليه، وأطلقوا عليه ثلاثة أسماء: فهو/ الإله براهما/ Brahma من حيث هو موجود، وهو/ فشنو Fishno/ من حيث هو محافظ، وهو/ سيفا ـ Sefa / من حيث هو مهلك»(18)

ومن الجدير ذكره أن معنى /براهما/ لغـةً «في السنسـكريتية » واصطلاحـاً في الميثولوجيا الهندوسية، تفيد معنى /خوّدي/ تماماً في التراث الايزيدي.

وهي /أي براهما/ تعني في السنسكريتية الإله الموجود بذاته لا تدركه الحـواس ويدركه العقل، وهو مصدر الكائنات كلها لا حدّ له، وهو الأصـل الأزلي المسـتقل الذي منه يستمد العالم وجوده.

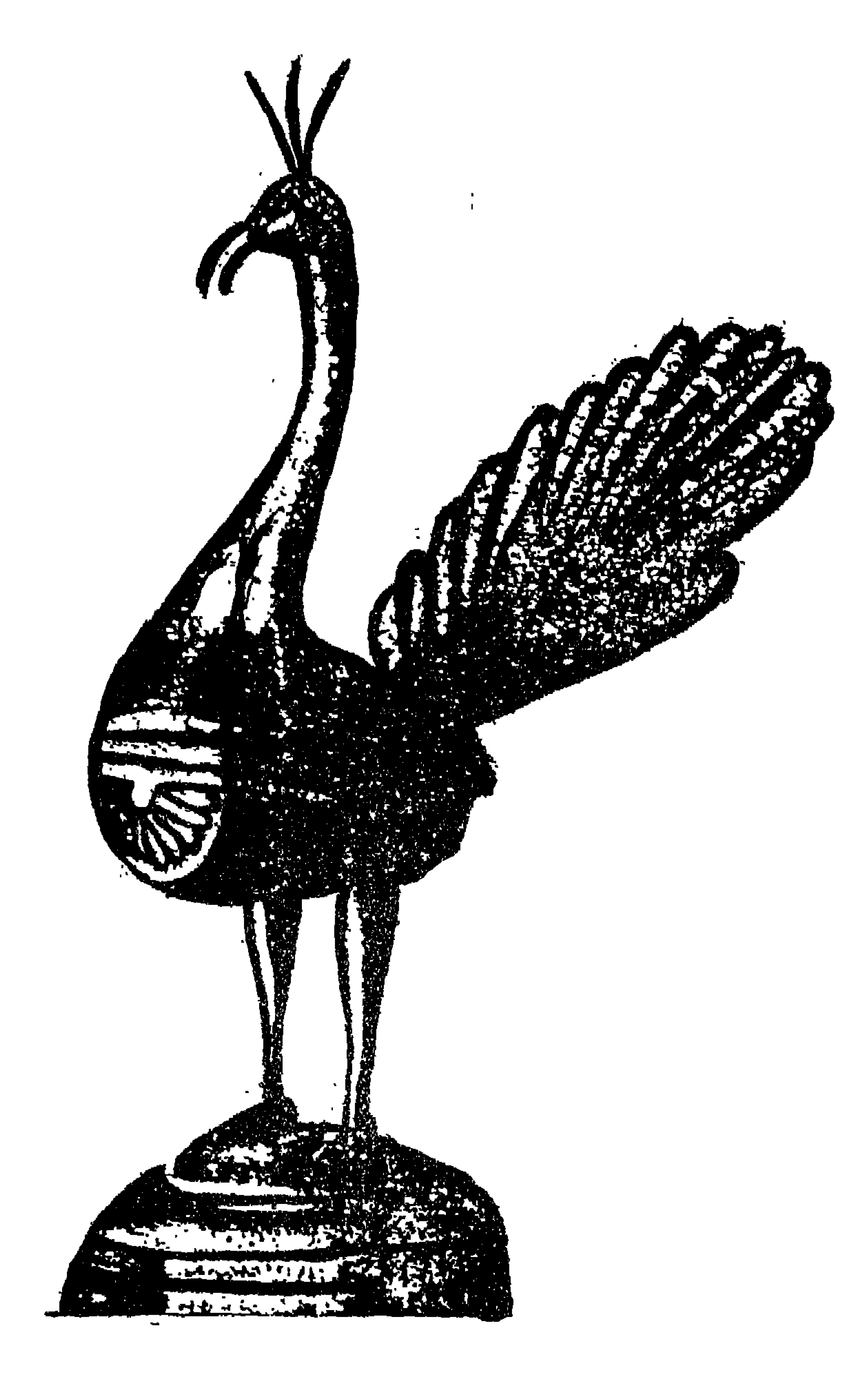
إذن فاللاهوت الايزيدي بتمفصله مع الفكر الهندوسي القديـم يتـأمل الله مـن خلال مرايا موشورية. فمرةً يتأمله على أنه الله / ذاته، ومرةً على أنه طاووس ملك /سره، ومرةً ثالثة على أنه الشيخ آدي ـ عدي / روحه التي تقمص بها. ولا تنفصم هذه الرؤيا من أفق اللاهوت المسيحي بخطوطه العريضة. فـ «للّـه» حسـبَ الإنجيـل ثلاثة اقانيم وهي: الله / الأب، و المسيح / الإبن، و مريم العذراء/ الروح القـدس. لذا يرى المسيحيون أنه ليس لـ يسوع المسيح أبٌ بشري وإنما هو تدبيرٌ إلهي محض.

* طاووس ملك /تشتت المصطلح:

نسمع في الميثولوجيا الايزيدية رواية عن خلق الكون فحواها:

(في البدء كان العالم محيطاً عظيماً تتوسـطه شـجرة العـزة الربانيـة الـ «هَرهـر Herher» [16] التي عاش عليها الله قروناً عديدة. وكانت هناك على مقربة من هـذه الشجرة نبتة وردٍ، تقمص الشيخ سن / إله اللوح والقلم وامراض الروماتيزم «بايبي سيبي» بوردةٍ منها. علماً أن الله هو مـن خلـق الشيـخ سـن هـذا. وهنـا خلـق الله جبرائيل/ عزازئيل/ طاووس ملك بهيئة طير وأودعه بين ثنايا الشـجرة ليكـون قريبـاً من روحه القدس).

رغم إيماننا العميق بأن فكرة طاووس ملك وحتى تسميته تضرب بجذورهـا في عمق ميثولوجيا الأديان القديمة والهندوايرانية منها على وجه الخصوص، إلا أن هـذا



صورة أحد الطواويس/ السناجق ويبدو أنه الأكثر تعبيراً عن شكل الطاووس

لا يعني نفي روايةٍ كهذه قد تعود بنا إلى خلفيات التسمية وحيثياتها التي تبرر لهذه الطائفة ـ على الأقل ـ دواعي تقديسهم لتمثال طير الطاووس. فتسمية «طاووس ملك» وتقديس الايزيدية للطواويس /السناجق ـ كما تخبرنا الرواية ـ تعود إلى بدايات الخلق والكينونة حيث خلق الله الملاك / الإله «طاووس ملك» على شكل طير. ولكن لماذا طير الطاووس ذاته دون غيره...؟

إن سؤالاً كهذا لا بدَّ وأنه سيعيدنا إلى التاريخ البعيد والبعيد جداً. فتقديس الطيور في المعتقدات قديم قدم المقدسات في ميثولوجيات الأديان القديمة. ومنذ أن بدأ الإنسان يتطهر بالمقدس في وجه اللامقدس [20].

فالرومانيون نقشوا الطاووس على نقودهم وقصورهم وبجّلوه ايما تبجيل كدلالة على الكمال المطلق وتأليه ملوكهم واميراتهم.

والصور المنقوشة على واجهات المعابد الزرادشتية تخبرنا عن مدى تقديس أتباع هذه الديانة للطيور، فالزرادشتيون يعتقدون بوجود طير الجنة الأزلي، وورد ذكر هذا الطير في الكثير من أساطيرهم وحكاياتهم الدينية حتى بات رمزاً أساسياً من رموز مقدسات هذه الديانة.

كما يعتقد البوذيون أن نبيهم، بل إلههم الأكبر بوذا، تقمص خمسمائه وثلاثين نوعاً من الحياة قبل أن يصبح مستنيراً ويهدي أتباعه إلى درب الحقيقة. وعاش من بينها عدة مرات بهيئة طائر. وتقول الإسطورة البوذية أن بوديستا/ بوذا، حين كان يحيا طائراً/ الطائر الحكيم/ انقذ حياة الطيور التي أصغت لتغريدانه وبوأته من التهلكة قبل ان تدب النيران في الغابة.

أما طائفة الدروز/ الدروزية/ فتنظر إلى هذا الطير من منظارٍ آخر مختلف . فهي تعتقد بأن طير الطاووس كان الرسول الخادع لأبويهم «آدم وحواء» والكتّاب

الدروز يطلقون اسم، الطاووس على مبتدعي المذاهب المخالفة لمبادئهم، ويتطابق طاووس اليزيدية ــ على حد قول برنارد Bernard ــ مع «دوروزي Doruzı» أو العجل المقدس عند الدروز[21] .

لو نبشنا في الخلفيات الميثولوجية /الدينية، لهذه الظاهرة فسوف نركن إلى الأصول الأولى لحقيقة هذا الطقس الذي هو امتداد تاريخي لأجدر الطقوس اعتباراً وقدسية في العقائد الهندوسية والسومرية والمصرية، فإله مدينة لكَش/ لاكش/ الذي يدعى «نين جيرسو - Nin Girso» صوِّر على هيئة نسر كبير له رأس أسد ويقبض على حيوانين. والجدير ذكره هو أن الدكتور خليل جندي قد أعاد مصدر كلٍ من كلمتي لاكش و لالش إلى مصدر واحد في كتابه: نحو معرفة حقيقة الديانة الايزيدية ـ النظام الطبقي - 3 - ج/ إذ يقول في ص 23 منه:

«وما يعزز اعتقادي كون (لاكَاش) و(لالش) هما من مصدر واحد هو ورود اسم (شوسين - Shousın)، أغلب الظن هو نفسه (شيخ سن) أحد أهم الأسماء الروحية (الآلهة) الرفيعة في الديانة الايزيدية وإله القمر عند حضارات وادي الرافدين، وان الكلمات (سن، سونه ت، شيخ سن) هي بالتأكيد أسماء لمسمى واحد (....) وكذلك ورود اسم (شامسي آداد الأول Shamsi Adad) اللولوبي الأصل وهو على الاكثر (شه مسی ادییا ـ شمسی آدیا) المعروف عند الايزيدية إلى يومنا هذا ومن بين أكبر آلهتهم».

وفي عقائد مصر القديمة نسمع اسطورة قريبة جداً من إسطورة طاووس ملك حين نزل على الأرض إذ تقول:

في البدء خُلِق الإله رع - Ra (إله الشمس وهو أكبر آلهة مصر القديمة) من ظلمة المحيط الأزلي/ التوق/ على هيئة طائر الفينكس Finkhs ثم حطّ عالياً فوق

البنبن - Binbin /الصخرة.

وكما هو وارد في الميثولوجيا المصرية فإن طائر الفينكس Finkhs هو الرمز الأقدس لروح ر ع - Ra/ رب الأرباب.

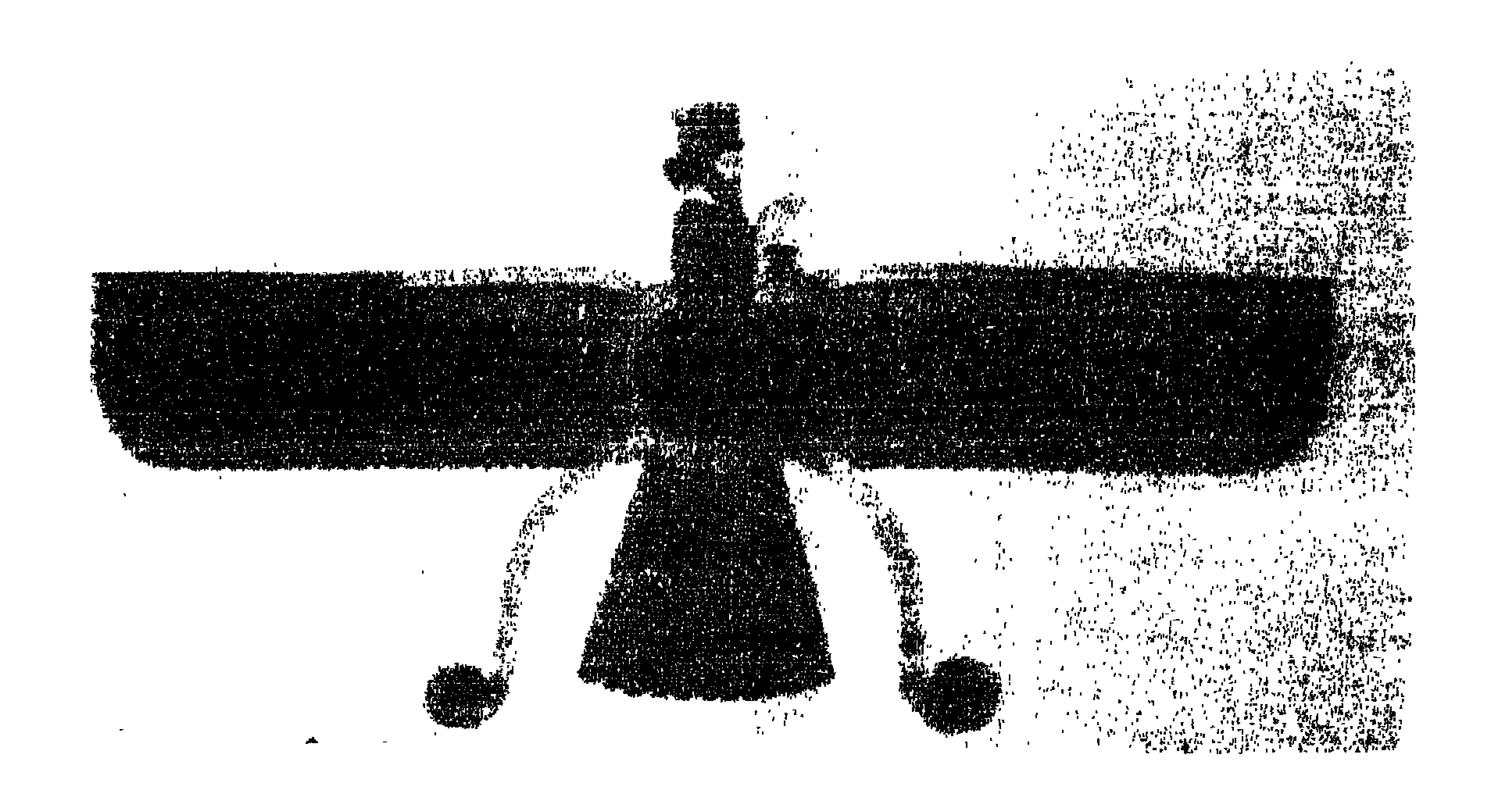
والبقرة كانت ولا تزال أكثر الحيوانات قدسيةً على الإطلاق في العقيدة الهندوسية. ويسجد الهندوسيون لتماثيلها المنتصبة في جميع معابدهم. كما لا يجوز شرعاً ذبحها أو حجزها فلها مطلق الحرية لتفعل ما تشاء لأنها مصدر للخير المطلق.

أما البوذيون فيبجّلون الثور لاعتقادهم بأنه من بين خمسمائة وثلاثين حالة تقمص لملاكهم/ إلههم الأكبر بوذا، عاش عدة مرات متجسداً في هيئة ثور.

وللثور قدسية خاصة أيضاً في عقائد ما بين النهرين/ ميسوبوتاميا «إذ كشفت النصوص التي عثر عليها بين أطلال معبد مدينة العبيد عن كهنة الهة المدينة وهي الآلهة «نين (Nin) وهرساج (Hersaj) والقابها أم الآلهة والبشر التي ترعى امراء المستقبل. وكانت تمثل على هيئة بقرة لم تلبث أن اختارت لها روحاً هو نانار (Nanar) إله اور (Ohr) الذي مُثّل على هيئة الثور القوي والذي يرمز به إلى القمر» (22).

إذا كان العقائد الهندوسية والبوذية وعقائد الـ «ميسوبوتاميا » وبعدها الدروزية، قد اتخذت من الثور/ العجل / البقرة منطلقاً ميثولوجياً لطقسٍ مقدس فإن معتقدات وأديان أخرى نَحَتْ عن مسارها وضحّتْ بذاك المقدس ليصبح قرباناً لآلهةٍ وطقوسٍ أخرى ارتقت عبر ميكانيزمية الصراع، لأنها كانت الأكفأ فاصطَفَت ميثولوجياً.

ولا يزل هذا الطقس حياً ضمن منظومة الطقوس الدينية في معتقدات الشمسانية /عبدة الشمس، والميثرائية والايزيدية. ففي عيد الجماعية/ جمايي، وهو



هذا الشكل المبيّن بهيئة الطير هو من أكثر الرموز قدسيةً والتي عُرفت بها الديانة الزرادشتية وكثيراً ما نُقِشَ على واجهات معابدها

من أكبر أعياد الايزيدية، يتم تقديم العجل /الثور في جوٍ من المرح والطرب قرباناً للشمس / نور العالم، وذلك على مرقد الشيخ شمس / إله الشمس الكائن في لالش النوراني. ثم يُطبخ على ايدي سادن المزار ليوزعه على الزوار.

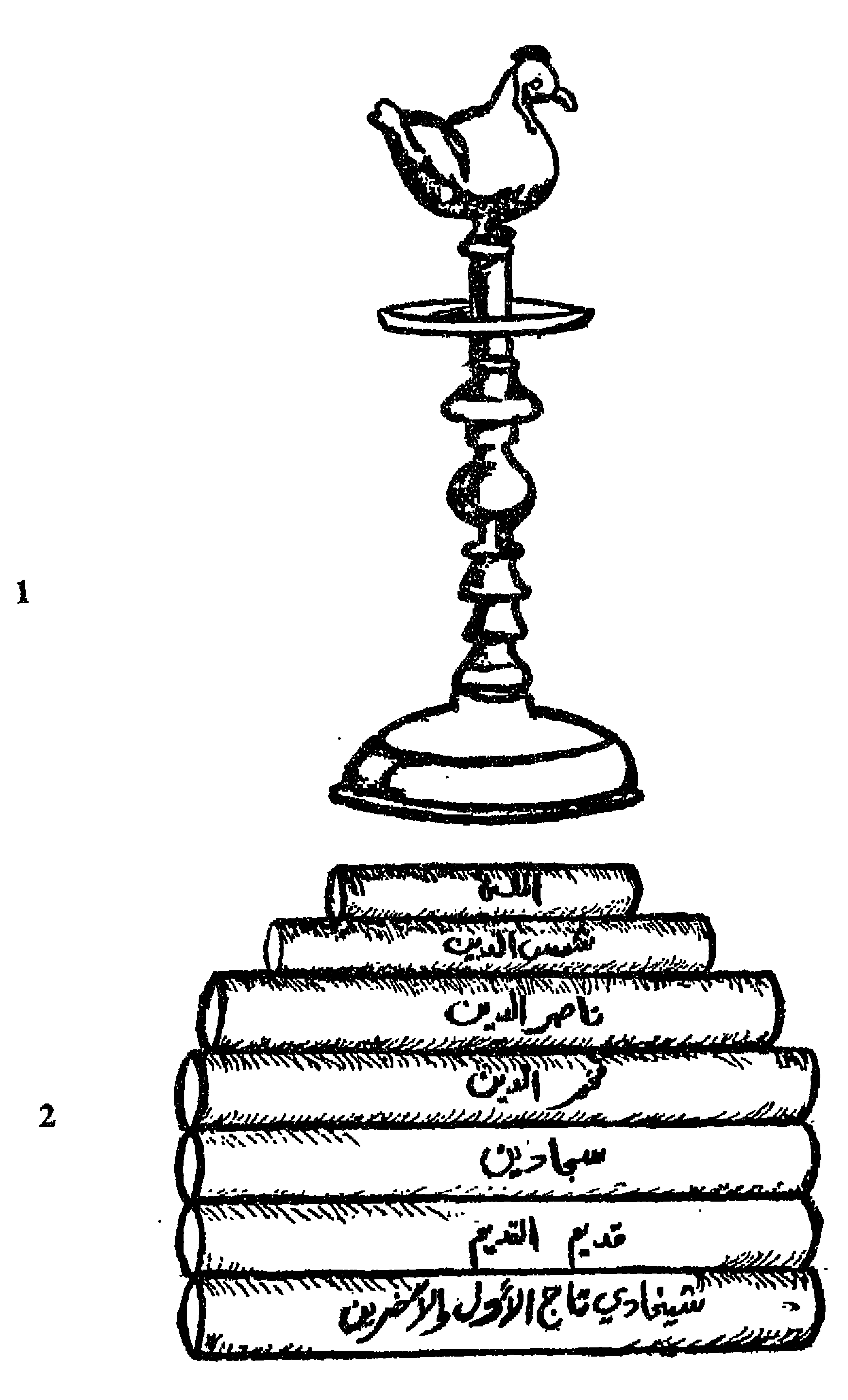
أما الطقس في أصله الميثولوجي ـ التاريخي فهو نابعٌ من عمق المعتقد الميثرائي.«حيث أن ذبح الإله ميثرا للثور بعد أن مسكه هو وحبسه وهرب منه، أهمية كبيرة في الدين الميثروي نتج عنه الإنبات والخصب» [23] واعتقد الميثرائيون في البداية إن التضحية بالثور / العجل، واتخاذه قرباناً كواجب، وهو خطيئة وإنتهاك لحرمة المقدسات، إلى أن تبلور الطقس على مر الزمن وأخذ موقعه الطبيعي في بنية المعتقد الميثروي.

للثور /العجل/ البقرة / دلالاته اللاهوتية ورموزه الإسطورية المتشعبّة في فلسفة المعتقدات الشعبية القديمة. لهذا غدا محوراً طقسيا/ ميثولوجياً لأديان قديمة عديدة دارت في فلكه.

ومن الجدير ذكره بهذا الخصوص هو بروز صراع طقسي بين مجموعتين من العقائد . عقائد قدسّت الثور/العجل/ البقرة وركعت له مقابل عقائد أخرى قامرت بذاك المقدس وضحت به.

وتبدو معالم هذا الصراع أكثر جلاءً بين الايزيدية / الطاووس المقدس والثور المضحى به (المهان) و الدروزية/ الطاووس المخادع والعجل (الثور) المقدس. ففي الوقت الذي نرى فيه الطاووس مقدساً والثور مهاناً لدى الايزيدية نراه عند الدروز على العكس تماماً.

ولم يغِب الطاووس عن الحكايات والأساطير اليونانية القديمة، حيث كانت الآلهة تعيش جنباً إلى جنب وسط المجتمع البشري. فالطاووس بنظر اليونانيين



1 - تمثال الطاووس وهو الشكل المقارب لكل طواويس الايزيدية.

2 - وسائد الطاووس كما تصوره بعض الكُتّاب الذين درسوا الايزيدية.

القدامى «كان يمثل طير الربّة» «هيرا» زوجة الإله «زيوس Zeus » رب الأرباب، لأن الطاووس في نظرهم يمثل فكرة الكلية والتكامل، لإحتوائه على الكثير من الألوان الزاهية في ريشه» (24)

إن مقارنةً بسيطة بين الطاووس باعتباره تمثيلاً لطير الربة هيرا ـ Hera عند اليونانيين والطاووس باعتباره تجسيداً لقدسية الملاك الأكبر /طاووس ملك، عند الايزيديين ستُحيلنا إلى النتائج التالية:

1 ـ التقاء الإسطورتين الايزيدية واليونانية وتمحورهما حول الطاووس باعتباره رمزاً لفكرة الكلية والتكامل.

2 ـ إذا كان الطابع التقديسي لـ «الطاووس» قد أحاله ليكون ممثلاً ـ كطير مطلق في الكمال ـ للربة «هيرا Hera زوجة الإله زيوس Zeus » رب الأرباب عند اليونانيين، فإن هذا الطابع قد تعمق أكثر في الميثولوجيا الايزيدية وتمركز الطاووس في قمة هرم مقدسات هذه الطائفة ليصبح رمزاً لرب الأرباب ذاته /طاووس ملك.

3 ـ إن كون الآلهة تجسيداً لفكرة المطلق/ اللامتناهي، وكونها تشكل حافزاً أخلاقيا يتطلع الإنسان بها إلى ما يجب أن يكون، فمن المنطقي جداً أن تُمَثّل الآلهة بالطاووس باعتباره مجسداً للكلية والتكامل في ذاته.

من المعروف ان طير الطاووس هو من أصل هندي، لذا أعتنت الأساطير والحكايات الشعبية الهندية بذكره، ووصف جماله الالوهي . «فقد كانت النماذج على جناحيه تمثل لديهم الأعين الكثيرة التي لا حصر لها، وتُمثل أيضاً السماء ذات النجوم» ويرى الدكتور الأحمد بأنه ربما يكون عهد الملك سليمان بن داوود هو الوقت الذي صرنا نسمع به عن ورود مثل هذا الطير إلى بلاطه. مستشهداً بأسفار

من العهد القديم:

«لأنه كان للملك (ويقصد سليمان) في البحر سفن ترشيش Tarshish مع سفن حيرام Hiram وكانت سفن ترشيش تأتي مرة كل ثلاث سنوات... حاملة ذهباً وفضة وعاجاً وقروداً وطواويس».

«لأن سفن الملك كانت تسير الى ترشيش مع عبيد حيرام وكانت سفن ترشيش تأتي مرة كل ثلاث سنوات حاملة ذهباً وفضة وعاجاً وقروداً وطواويس» (العهد القديم/ سفر الملوك 1-: 22 عام أخبار الأيام 9 : 21) «25» بعض الدارسين والباحثين في معتقدات شعوب الـ «ميسوبوتاميا» يحاولون الربط بين قدسية طاووس ملك لدى الايزيدية والطيور المقدسة الآشورية التي نراها منقوشة على جدران معابدهم ومنحوتاتهم. تلك الطيور المعروفة بأجنحتها ووقفتها المعتدلة ومناقيرها المعوجة. فالإله نرجال Nevgal وهو إله العالم السفلي لدى الآشوريين (في الأرض حسب معتقدهم ثلاثة عوالم علوي وسفلي ووسطي) ويشكل مع كلٍ من أونو وانليل الثالوث الآشوري المقدس إذ يمثل احياناً بهيئة الطير.

وكما اختلفت الآراء والنظريات حول إعادة فكرة «طاووس ملك» لجذورها الميثولوجية الأولى كذلك تعددت الرؤى حول المصدر الإشتقاقي للفظة «الطاووس» أيضاً.

السيد صديق الدملوجي يرى: «أن كتب السير والتاريخ والتفسير تدل على أن الملك المنبوذ قبل أن يُطرد من الجنة كان يسمى بـ «طاووس الملائكة» للطافة شكله وجمال صورته. وفي اللغة تأتي (الطوس) بمعنى حسن الوجه ونضارته ومنه اشتق طاووس ويطلق على الجميل من الرجال. ويستدل من ذلك أن هذا الإسم أُخِذَ من منبع إسلامي محض وهو عربي صرف»[25] .

إن هذا التفسير مرفوضٌ من أساسه. ورفضُنا له ينطلق من الإعتبارات التالية:

1 ـ إذا كان اسم «الطاووس» مأخوذٌ فعلاً من منبعٍ إسلامي محض ـ حسب ما يقوله الدملوجي ـ فلماذا نسبق ظهور هذه الفكرة اللاهوتية البحتة الإسلام قروناً عديدة وتتناولها الميثولوجيات الرومانية واليونانية والميسوبوتامية والهندية والايزيدية .«وجهة نظر ميثولوجية» .

2 ـ بما أن للايزيدية ـ كديانة قديمة ـ أسبقية الظهور على الإسلام فليس من المنطقي والمعقول أن تكون فكرة «طاووس ملك» لاحقة بهذه الديانة لتشكل بعداً تاريخياً وقطيعة قمعية عن اصولها الأولى . سيما وأن هذه الفكرة متجذرة في تربة الايزيدية بل هي الروح الأقدس فيها. «وجهة نظر منطقية».

3 ـ لو سلمنا جدلاً بأن الإسم عربي صرف فما الدليل القاطع على عدم وقوع اللغة العربية تحت تأثير لغات الشعوب والأمم المجاورة لشبه الجزيرة العربية علماً أن هناك مفردات أعجمية كثيرة دخيلة في جسد اللغة العربية. وظاهرة التثاقف /التأثر والتأثير بين الثقافات/ ظاهرة تاريخية متواصلة بين الجماعات البشرية.لا سيما وإذا عرفنا انه كانت هناك فرق طاووسية حتى في زمن صلاح الدين الايوبي.

* «وجهة نظر لغوية»

ذهب فريق آخر من الباحثين منحى «ميثولوجياً ـ تاريخياً واعادوا لفظه الطاووس إلى الميثولوجيا اليونانية. فالسيد فورلاني Fuvlani يعيدها إلى لفظة «تيئوس - Theos» وهي تفيد معنى الإله في اللغة اليونانية والجدير ذكره هو تقاطع المعنى الميثولوجي /باعتبار أن «زيوس Zeus » كان رب الارباب عند اليونانيين /مع المعنى اللغوي /تيئوس - Theos/ أي الله.

ويذهب السيد (ف . نو) المستشرق الفرنسي وصاحب كتاب «النصوص

والبراهين على الملة الايزيدية» أبعد من فورلاني بقوله: إن طاووس ملـك هـو الإلـه السامي الذي كان قبل الموجودات وهو لا نهاية له ويسود الخلائق وهو موجود في كل مكان ويرسل خدَمَه إلى العالم لكي يفرقوا بين الضلالة والإيمـان ومـا هـذا إلا الإلـه ثيؤس نفسـه. ولا يخفـى أن هـذه الكلمـة أخذهـا مسيحيو هـذه البـلاد مـن اليونانيين واستعملوها في صلواتهم. [27] أمـا «شولسـون Shwolsohn» فيطـابق بـين اسم «تاوز - Tauz» الوارد في تقويم حران مع تموز /الإلـه البـابلي المشـهور. بينمـا ربطه ارثيبالد سايس Archibald Sayce مع «تيـاس — Tauz » أو «تـواس — Thoas» الذي عُرف في اماكن كثيرة كزوج لـ «مرينـا — Myvin » وإبنـاً لأدونيـس Adonis و«ميرها - Myrha» أو «سميرنا Smyrna - »[28].

إلا أن باحثاً آخر يقول «أن طير الطـاووس عنـد الايزيديـين مـا هـو إلا تعبـير للشمس (شيخ شمس/ إله الشمس) وهو عبارة عن تموز النبطيـس الأقدمـين والإلـه يتكلم عنه حزقيال النبي». [29] وحزقيال هو نبي مـن أنبيـاء اليهـود ظهـر في الوقـت الذي أُسِر فيه بمدينة بابل أيام مجد الإمبراطورية الآشورية.

وما يدعم هذا الرأي هو «ان عبادة» تموز - Tamuz «كـانت شـائعة في وادي دجلة وفي المنطقة المحيطة بجبل سنجار حتى نصيبين وان إسم «تموز» كان شائعاً بين المسيحيين في زمـن الدولـة الساسـانية.[30] وكـان إلـه الشـمس /شمـس/ شمـاس في معتقدات العراق القديم يمثل بدائرة ذات أربعة أشعة تتخللهـا أشـعة مجعـدة كدلالـة على المعبود الشمسي. أما رمز طيران الشمس وحركتها فكان يصـوّر علـى شـكل كرة ضوئية ذات أجنحة ومذيلة بذيل من الأشـعة علـى شـكالة ذيـل طـائر. وللإلـه الشـمس /شمـاس في ميثولوجيـا العـراق القديـم دور ممـاثل لـدور الشـيخ شمـس/ شيتشـمس/ طـاووس ملـك فكلاهمـا يمنحـان العـالم النـور والحيويـة. إضافـة إلى

تجسيدهما للخير والكمال المطلقين في ذاتيهما.

إن قدسية الطير ومكانته الإسطورية باعتباره مصدراً للإلهام والهيبة في معتقدات الشعوب على مر التاريخ ارتقت بالقفز من خريطة الأديان القديمة إلى مساحاتٍ لميثولوجيا أديانٍ أخرى فيما بعد.

ويبدو أن السيد المسيح قد نظر إلى الديك /الطير من منظار القداسة والهيبة حين تنبأ لتلامذته بأن الفريسيين سيجرّونه إلى بيلاطس النبطي كي يُصلب وقبل أن يصيح الديك سينكره بطرس ثلاث مرات. «قال له يسوع الحق أقول لك إنك في هذه الليلة قبل أن يصيح الديك تنكرني ثلاث مرات» (إنجيل من ـ الإصحاح السادس والعشرون/ 34). وتُعرف الكنائس الكاثوليكية حتى اليوم بوجود تمثال الديك فوق قمم مناراتها متخذةً إياه رمزاً من رموزها اللاهوتية.

رغم أنه لا يوجد حتى الآن رأي قطعي حول مصطلح «طاووس ملك» ومصدر تسميته واشتقاقه ذلك لأن المسألة ما زالت بحاجة إلى بحوث ودراسات تتناول الايزيدية في علاقتها بالأديان القديمة من منطلق منهج علم الأديان المقارن ، إلا أننا نستبعد الرأي القائل ـ كما أسلفنا ـ بإعادته إلى اصولٍ إسلامية محضة أو منبع عربي صرف للأسباب المذكورة سابقاً.

وما نستطيع استقراؤه واستنباطه بصدد فكرة طاووس ملك من وجهة نظرٍ لاهوتية هو أنه يمثل رمزاً في الميثولوجيا الايزيدية لـ:

1 ـ الخلود: كونه يمثل الملاك الأكبر (رئيس الملائكة /الآلهة الستة) المتحد مع ذات الله الخالدة في الأزل.

2 ـ الروح الطاهرة:باعتباره مرموزاً إلى الشمس الطاهرة. ومالشيخ شمس /إله الشمس حسب اعتقاد الايزيدية إلا الوجه الآخر لـ «طاووس ملك» فكلاهما واحد.

3 ـ الكلية والتكامل: كونه يمثل الله ذاته. وطاووس ملك هو إسم من أسماء الله على حد قول الايزيديين.

إن قدسية «طاووس ملك» وعظمة شأنه في الحياة الدينية لدى الايزيديين دفعتهم إلى تنصيب تماثيل وشمعدانات بهيئة الطير/ غالباً الطاووس/ ليعبدوا ويتبركوا بها في طقوسهم وأعيادهم ومناسباتهم الدينية تمجيداً لألوهية ذاك الملاك. وتسمى تلك التماثيل بالطواويس وعددها سبعة أي بعدد ألهة الايزيدية الأساسيين وليس لهذه الطواويس هيئة واحدة وإنما لكل «طاووس» شكل يختلف عن شكل الطواويس الأخرى. إلا أن جميعها مصممّة على هيئة الطير وتتراوح بين شكل الديك والطاووس [31].

بيدَ أن السيد اسماعيل باك جول ـ كان أحد امراء الايزيدية يقول بأن عدد السناجق كان تسعة سابقاً ونتيجة الإضطهادات التي تعرض لها الايزيديون تمت سرقة بعض منها. ففي عام 1893 قام الفريق عمر وهبي باشا بإعلان الحرب على الايزيدية تحت راية الإسلام، فاحرق ودمر قراهم محاولة منه لصهرهم في بوتقة الشريعة المحمدية. ثم «استولى على أربعةٍ من طواويسهم وأرسلها إلى بغداد حيث حفظت في خزانة الجيش السادس ويقول الدملوجي انها أعيدت إليهم بعد أن أعلنت الحكومة العثمانية مشروطية الإدارة.[32].

ومن التقاليد الدينية المتعارف عليها لدى الايزيدية هي أن تحفظ الطواويس السناجق (والسنجق كلمة تركية تعني الراية أو العلم) عند أمير الايديزيدية المقيم في قضاء الشيخان وذلك في حجرةٍ خاصة يطلق عليها اسم «خانة الطاووس ـ خانا تاوسي».

ويتم ضمان هذه السناجق من قبل القوالين إذ ينقلونها بين القرى الايزيدية ليتم

التبرك بها في وسط يعمّهُ الفرح وتلاوة الأدعية الدينية على أنغام الـ «دف وشباب» (تعتبر آلتا الدف والشبابة مقدستان في المعتقد الايزيدي) وبحضور الشيوخ والبيرة /الأبيار جمع بير) والكواجك (جمع كوجك) إذ يقوم الجميع بالتطواف حول الطاووس /السنجق في خشوع وهيبة سبع مراتٍ وأيديهم مكتوفة، يتوسلون إليه لغفران ذنوبهم وخطاياهم منذّرين المال والخيرات. وفي نهاية الطقس يتقدم المتطوف ـ الايزيدي حصراً ـ نحو الطاووس مكتوف الأيدي ماشياً على ركبتيه وحافي القدمين مقبلاً إياه في خشوع تام بينما القوالون يدعون له بالخير والبركات من خلال دعاءٍ خاص.

إن هذه الطقوس التي نشهدها اليوم بين اتباع الطائفة الايزيدية وغيرها كتقديس الشمس والقمر... الخ تعود إلى عهودٍ تاريخيةٍ غابرة حين كان يتعامل الإنسان مع الطبيعة تعاملاً طوطمياً فأودعَ الروح في كل شيءٍ أو ظاهرةٍ انبهر لها. وكان هذا شأن كل الأفكار الدينية القديمة.

والبوذيون شأنهم في ذلك كشأنِ غيرهم إذ سجدوا للطبيعة وظواهرها القريبة وصوروا تمثال زُحَل وهو رمز الطالع الحسن لديهم ـ بهيئة طير جميل على شكالة الطواويس الايزيدية. يعلوه صورة آدمية لإنسان مريع ذي هيبة وعلى تاجه المشع نوراً يتعانق أفعيان كالأفعيين المتعانقين على مدخل لالش.

ولليهود أيضاً ـ كطواويس الايزيدية ـ شمعداناتهم المقدسة وهي لا تزال منتصبة في معابد أورشليم حيث أن للشمعدان الواحد سبعة فروع (لاحظ كعدد طواويس الايزيدية) تُرمز بها إلى النور الإلهي الخالد.



الشمعدان المقدس في الثيولوجيا اليهودية. والجدير ذكره هو أن تقديسه متأتٍ من كونه مجسداً للنور الإلهي تماماً كطاووس ملك المنبلج من ذات الله/نوره.

* طاووس ملك/ الحية في إسطورة الإغراء:

قبل البت في معالجة هذا الموضوع أنوه بأن ثمة سؤالاً يفرض نفسه بقوة ألا وهو: هل لـ «طاووس ملك» علاقة بالحية وغواية آدم وحواء للأكل من ثمار شجرة الخير والشر التي حرمها الله عنه...؟. وإن كانت هناك علاقة ارتباطية فما هي ما هيتها...؟.

والجواب عن هذا السؤال هو : نعم توجد علاقة ارتباطية حميمة. إلا إنني لا أنوب الخوض كثيراً في الكشف عن تشابكات هذه العلاقة وماهيتها. فالدكتور خليل جندي أولى لهذا الموضوع اهتماماً كبيراً في بحثه المنشور بمجلة سه رهلدان/ نحو معرفة حقيقة الديانة الايزيدية.

إن ظاهرة تقديس الايزيدية للحية (خصوصاً السوداء) هي من صلب المعتقدات الوثنية القديمة . وكانت الطوطمية. وهي من أقدم الديانات الهندية ــ الإنطلاقة الأولى لتلك الطقوس حينما كانت القوى الغيبية تسيطر على العالم فاستسلم الإنسان مندهشاً إزاءها ثم سجد للطبيعة وأعطى لكل شيء فيها روحاً إلهية الأنهار .. البحار ... الجبال والحيوان... الخ.

فالهندوسيون قدسوا الأفاعي واقاموا لها الطقوس والحفلات الدينية الخاصة بها. «واكبر مراكز عبادة الأفاعي هي في شرقي ميسور (بالهند) فهناك في معابد هذا الإقليم تسكن جموع زاخرة من الأفاعي حيث يقوم الكهنة على اطعامها والإهتمام بها» [33].

وجسد الصينيون القدماء بعض آلهتهم ومثّلوها في معابدهم على هيئة افعى. فـ «نوكواشي /Nokwashi» وهي حامية الأرض ومنقذتها والتي أقامت للسماء أعمدتها. ونوكواشي في الأساطير الصينية هي الأخت السماوية للملك

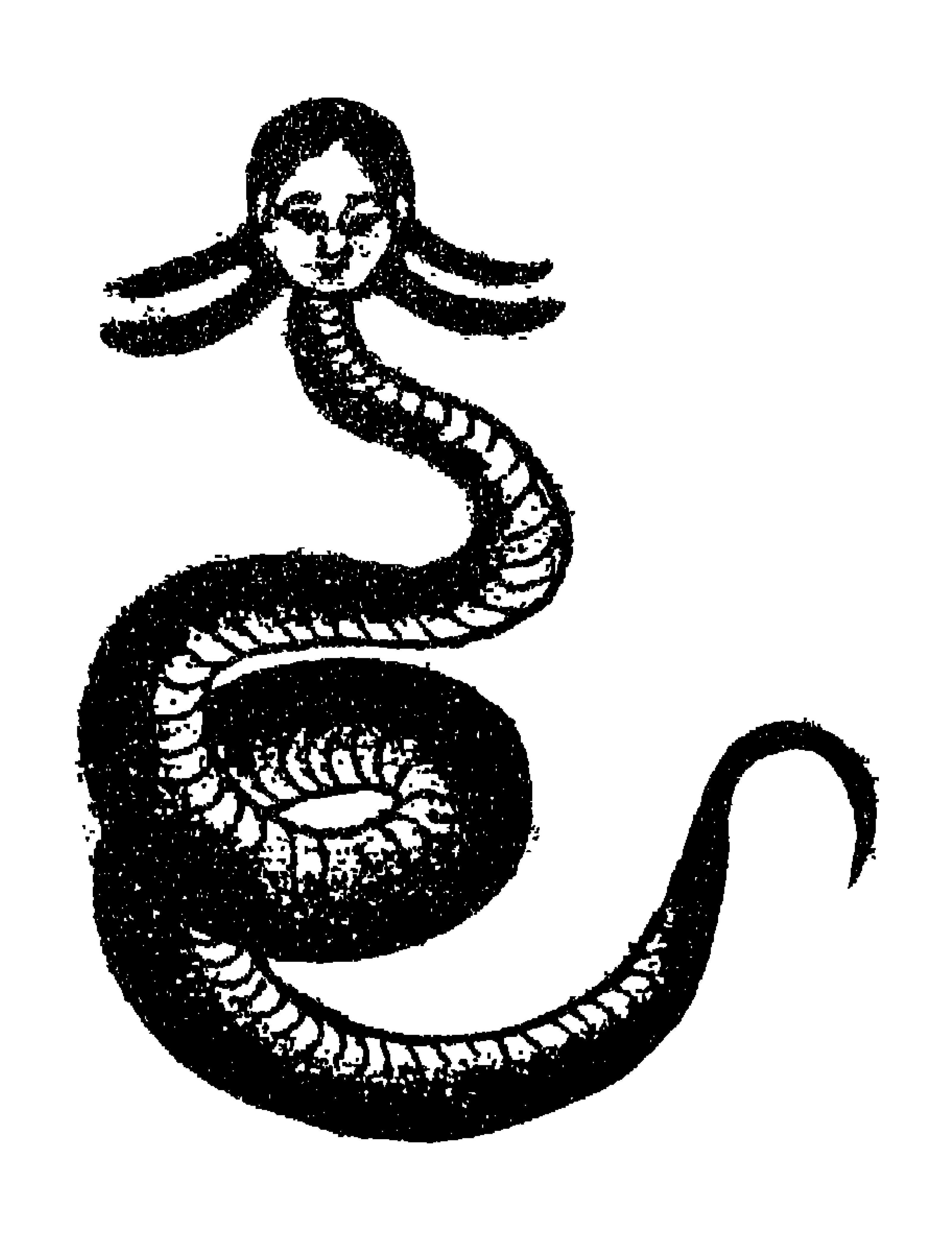
«فوشي - Foshi» الذي عاش في الألف الثالثة قبل الميلاد ويعده الصينيون أباً بل خالقاً لكل البشرية. ونوكواشي تلك تمثّل بجسد أفعى ورأس لفتاةٍ آدميةٍ جميلة.

إن لظاهرة تقديس الحية بصماتها الواضحة في الميثولوجيا الايزيدية. ووشيخ مند (من السلالة الشمسانية) يعتبر شيخاً /ملاكاً بل إلهاً للأفاعي في المعتقد الايزيدي. واتباع هذا الشيخ يمتازون بالقدرة على تدجين الأفاعي دون أن تؤذيهم.

والحية في علم الصدر الايزيدي أنقذت الملة الايزيدية (ترد في بعض القصص سفينة نوح) من الإنقراض أثناء الطوفان. جاء في مصحف رش: «أما الطوفان الثاني فجاء على امتنا اليزيدية أيضاً فلمّا تعالت المياه وطافت السفينة فوق الماء صارت فوق جبل سنجار فصدمت. بحجر فتكعوكت الحية وسدت الثقب» (الفصل الخامس: السفر 49) إن في ذلك جزءاً من الحقيقة التي تسمو بالحية باعتبارها قوةً للخير لدى الايزيدية. ولكن كيف أغوت الحية آدم وحواء بالأكل من ثمار الشجرة التي منعهما الله منها...؟؟

إن الأديان السامية الثلاث لها في هذا الصدد إسطورة واحدة من حيث المبدأ. فالحية هي المتقمصة بروح ش/ إبليس وأغرت آدم وحواء بخبثها ومكرها للتمادي على ما حرماهما الله منه. وبالتالي ما الحية إلاّ تجسيدٌ لإرادة ش /ابليس الشريرة لهذا لعُنِت إلى الأبد.

أما مصحف رش فتناول الإسطورة ذاتها من منطلق آخر: «وأمر جبرائيل أن يُدخِل آدم الفردوس ويأمره أن يأكل من كل الشجر ما عدا الحنطة. وبقى آدم مائة سنة. فقال طاووس ملك لله: كيف يكثر آدم نسله وأن إن لم يأكل من شجرة الحنطة؟ قال له الله: سلمتُ الأمر والتدبير بيدك. فجاء طاووس ملك وقال لآدم هل أكلت من الحنطة؟ أجاب آدم: كلا، لأن الله قد نهاني. قال طاووس ملك



نوكواشي /آلهة الإنقاذ والتي قامت للسماء
اعمدتها في الميثولوجيا الصينية

كُل من الحنطة فتغدو أحسن. ثم أكل آدم من الحنطة وللوقت انتفخ بطنه واخرجه طاووس ملك من الفردوس وصعد إلى السماء وكان آدم كئيب الخاطر يبكي وينوح» (مصحف رش /السفر 24).

ما نستقرئه هنا هو أن الإسطورة تبرر تصرفات الحية/ش/ طاووس ملك في اغوائها/ إغوائه لآدم وطرده من الجنة إذ أن الله قد سلّمه مقاليد الأمور ليتصرف كما يشاء.

وقد شابه زرادشت دور الـ «ديفاس/ ديفاسنا Devas» وعلاقتهم بالإغراء مع دور الحية /ش/ طاووس ملك وإغوائها لآدم وحواء. والديوهو رمز الشر في الإسطورة الشعبية لدى الايزيدية «إذ يصوَّر على شكل حيوان خرافي ذي سبعة رؤوس وجسد ضخم يفوق تصورات العقل كما أنه يتخذ من الإنسان غذاءً له.

ومن التماثيل واللوحات الجدارية التي اكتشفت في المعابد الميثرائية نستدِل على مكانة الحية وقدسيتها في طقوس هذا المعتقد. فهناك منحوتات للإله ميثرا/ إله الشمس وأكثر الأرباب شأنا في الميثرائية/ وهو يذبح الثور وفي أسفله حية بينما يقفز الكلب من فوق رأس الثور لاعقاً دمه المسال على الأرض.

إن طاووس ملك المتجسد في هيئة الحية لم يكن وحيداً في عملية الإغراء تلك بل كان لله قسطٌ من المسؤولية لهذا «تعتقد الايزيدية بأن ذلك كان من تخطيط الله وما ادّاه ممثله (طاووس ملك)ما كان إلا تنفيذاً لخطة الله وقد نفذ ميثرا الأمر نفسه عندما ذبح الثور (العجل) ووزع لحمه على أتباعه كي يجعلهم خالدين»[34]

نتلمس في الأساطير البوذية قصة إغراء مشابهة لإسطورة إغراء الحية /ش/

طاووس ملك لآدم وحواء فحين يترك سيدها تا/ بوذا الجاه وعرش الإمارة ويصبح شحاذاً يأخذ القسم على نفسه بأن يكرس كل حياته في البحث عن الحقيقة وحكمة العالم. إلا أن قسمه هذا لم يرضِ أهواء اعداء الحقيقة ومنه/ مارا/ Mara إله الشر.(35) فكرّس كل جهوده لتحييد بوذا عن طريق الحقيقة وسخر بناته الثلاث بأرواحهن الشريرة في محاولةٍ لإغراء الحكيم بوذا ووقعه في الفخ المنصوب له. وهنا تتجه الإسطورة منحىً مختلفاً عن منحة إسطورة الايزيدية حيث تذهب كل محاولات مارا Mara أدراج الرياح دون أن ينقطع سيدهاتا عن عالم التأمل والبحث عن الحقيقة.

وفي الوقت الذي اتخذت فيه بعض الشعوب والجماعات البشرية من الحية رمزاً للحكم والشر والإغراء فإن شعوباً أخرى قد اتخذتها رمزاً للخير والعطاء. فالصينيون القدماء جسّدوا الروح في الطبيعة وعبدوها كغيرهم من الشعوب القديمة وكانوا يرون أن هناك صراعاً دائماً فيها بين القوى الخيرة/ شين ولاقوى الشريرة/ كوي. إلا أن شين قد تعيش أحياناً في حالة سبات دون أن يكون لديها القدرة على منح الخير. ويُرجع الصينيون سبب انقطاع المطر في تراثهم الشعبي إلى نوم الأرواح الخيّرة التي لا بدّ من ايقاظها وذلك بصنع تمثالٍ لتنينٍ من الخشب رمزاً وإحياءً لـ شين/الروح الخيرة. (Shin).

ونتلمس صدى هذا الطقس في التراث الشعبي لدى الايزيدية أيام تندر الأمطار وتصبح المزروعات بأشدّ الحاجة إليها في المواسم الشحيحة إذ يقوم الصُبية بتشييد تمثالٍ من الخشب والخرق على هيئة فتاة يسمونها «بووكاباراني» أي عروسة المطر يحيون بها الأرواح الخيرة كي تنعم عليهم بالمطر وهم يرددون بصوتٍ واحد بين أزقّة الحارات:

«بوو كامه باران ديڤى باران ديڤى ـ مه ژى ئه ردو ئه زمـان ديڤـى ئـه زمـان ديڤى»/ وتعني عروستنا تأمل المطر ... المطر. نأمله مـن الأرض ومـن السـموات وأيضاً «با راني بى بارى بار ـ تووتووكا گنمـى تـه خـوار»/وتعـني امطـري أيتهـا السماء فإن الطيور التهمت قمحكِ.

• طاووس ملك/ ابليس... خضوع للمشيئة كواجب مطلق وعصيان للأمر كواجب نسبي:

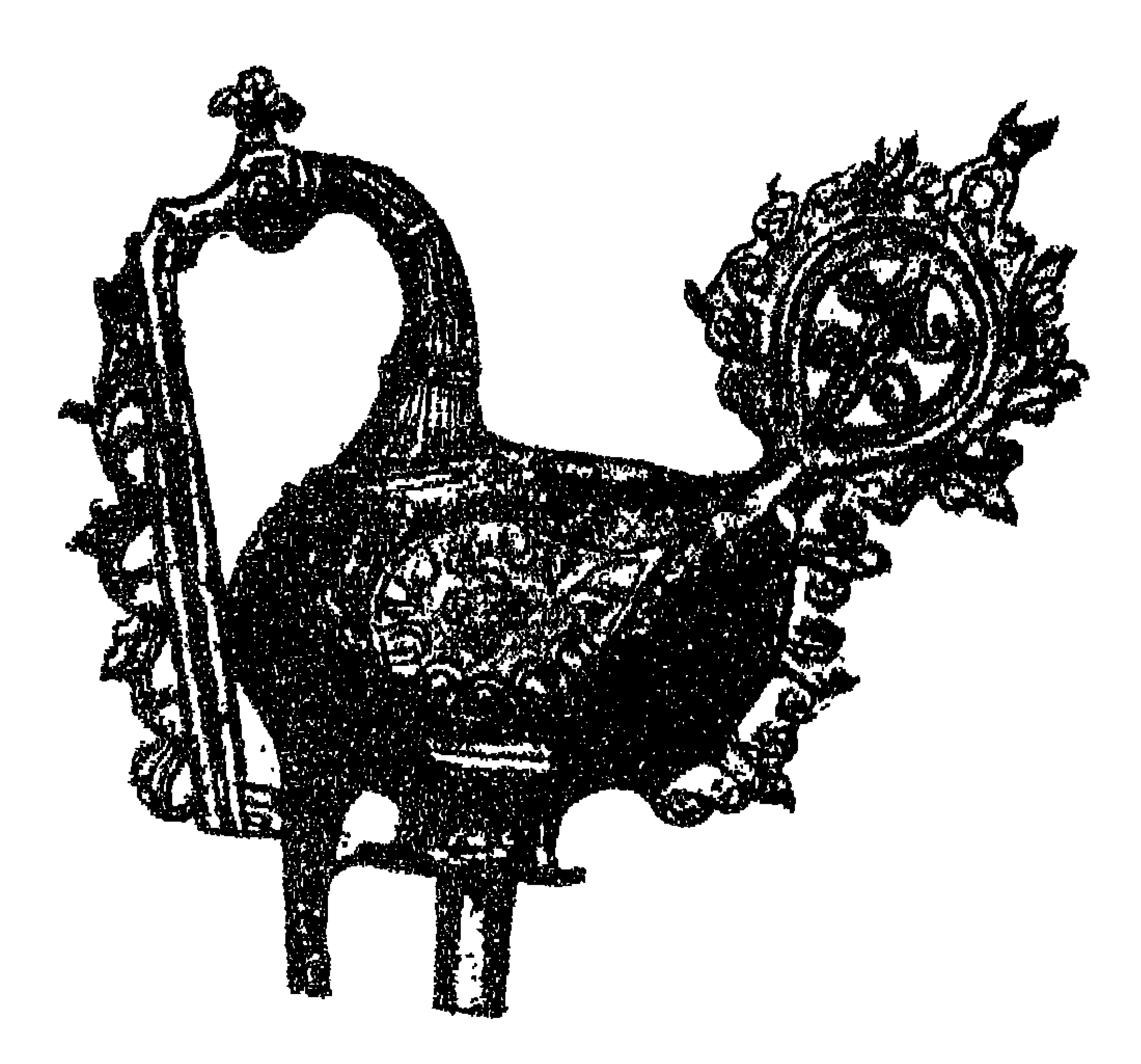
عالجنا فيما سبق فكرة «طاووس ملك» من وجهـة نظـر الميثولوجيـا الايزيديـة وبينّا من خلالها مكانة هذا الملاك ودوره وكيـف خلقـه الله مـن نـوره منـذ الأيـام الأولى للتكوين والخليقة.

والآن سـنتطرق إلى الفكـرة ذاتهـا مـن منطلـق الـرأي الآخـر الـذي يتناولهـا ميثولوجياً بعدِّ «طاووس ملك» ش أو ابليساً.

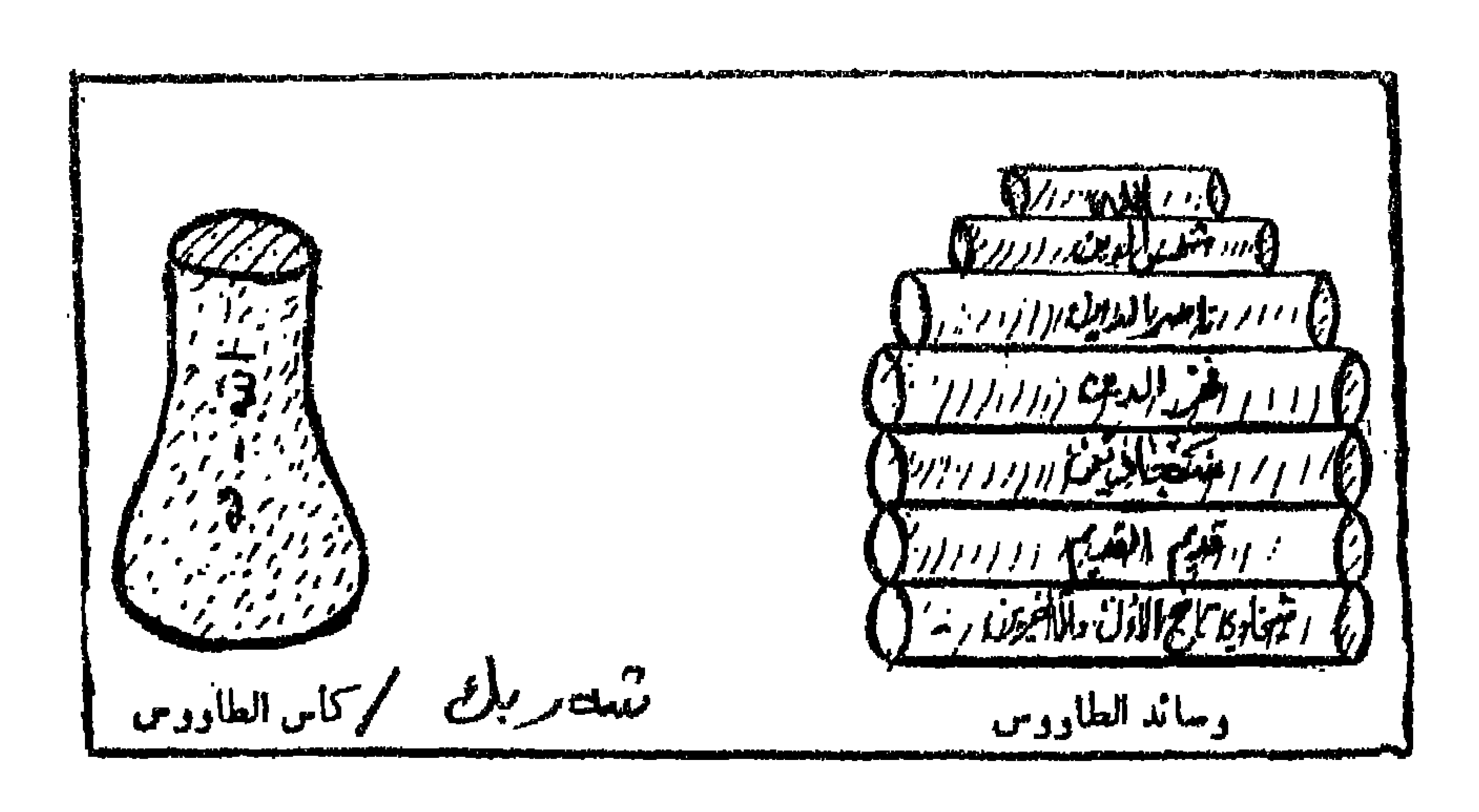
وأودُّ أن أنوه مـرة أخـرى علـى أن دراسـة الفكـرة لا تتجـاوز إطـار التفكـير اللاهوتي ـ الميثولوجي. وتناولُنـا لشـخصية طـاووس ملـك /ش/ ابليـس هـو كونـه شخصية ميثولوجية بحته لاكائناً موجوداً بذاته.«لأن عالم الإسـطورة عـالم درامـي، عالم أعمال وقدرات وقوى متصارعة، والإسطورة ترى هـذا الاصطـدام بـين تلـك القوى في كل ظاهرة من ظواهـر الطبيعـة والإدراك الإسـطوري مفعـمٌ دائمـاً بهـذه الخصائص العاطفية فكل ما يرى أو يحس محاط بجو خاص، جو من الفرح أو الحزن أو العذاب أو الهياج والإستبشار والغم. في حال الإسطورة لا نسـتطيع أن نتحـدث عن الأشياء باعتبارها مادةً ميتة أو هامدة فكل شيء ثمة خـيِّر أو شـرير، صديـق أو عدو، مألوف أو غريب، جذابٌ معجب أو منفّر متوعد» «36».



تمثال زُحل (ساني) عند الهندوس وهو في اعتقادهم رمز/ إله للطالع الحسن



تمثال آخر من تماثيل الطاووس المقدسة لدى الايزيدية
والتي تجسد روح معبودهم الأكبر طاووس ملك



ولو حاولنا أن نحدد المشاعر الرئيسية التي عبّرت بها الأديان السامية الثلاث «اليهودية ـ المسيحية ـ الإسلام» عن علاقة الإنسان بالإله لوجدنا أنها تنحصر في المحبة والخوف والكراهية. محبة الله والخوف من جبروته وعقابه وكره عدوه (ابليس). [37].

والآيات القرآنية التي تعالج فكرة ش/ طاووس ملك تبيّن لنا مأساته وما حل به بعد عصيانه لأمر الله وكيف أنه طُرِد من الجنة ملعوناً إلى الأبد.

«ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال ما مَنَعك ألاّ تسجد إذ أمرتك قال أنا خيرٌ منه، خلقتني من نار وخلقته من طين. قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج إنك من الصاغرين» (الأعراف ـ الآيات 10 ـ 11 ـ 12 وما بعدها).

«وإذا قلنا للملائكة إسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ابى واستكبر كان من الكافرين» (البقرة: 34) ففي الوقت الذي تعظم فيه الايزيدية من شأن طاووس ملك /ش/ وتعده مندمجاً في ذات الله بعد تكريمه له فإن الإسلام والأديان السامية الأخرى تُحطُّ من هذا الشأن وتعدهُ عاصياً لأمر الله حتى بات منبوذاً في عداد الكافرين.

وهذا الإختلاف في وجهة المصير بعد امتحان طاووس ملك /ش/ أمام مشيئة الله يخلق طابوراً من إشارات إستفهام «لا تنتهي. لتصبح إشكالية حقيقية.

وبدراسة منهجية مقارنة بين وجهتي النظر الإسلامية والايزيدية سنصل إلى الإستنتاجات التالية:

1 ـ في البدء خلق الله طاووس ملك/ ش/ وأخضعه لمشيئته بألاّ يسجد لغيره. فما هي الحجة التي تبرر أمر الله بسجود طاووس ملك لآدم؟

- كيف سيعصي طاووس ملك /ش/ أمـر الله طالما إرادته هـي «إن اراد لشيءٍ كن فيكون»؟ .

- ألم يبرر طاووس ملك سبب عدم سجوده لآدم تبريراً منطقياً بأن الله قـد خلقـه من نوره وخلق آدم من تراب - كحجة أولى - ولا يُعقل ان يكون النور سـاجداً للتراب سيما وأن النور/ النار بطبيعتها وجوهرها تحتـل مرتبـةً أرفـع وأسمى مـن مرتبة الصلصال في نظام الترتيب الكوني الذي يبتدىء بالكمـال المطلـق وينتهـي بالعدم.

- ألا تشكل الحجة الثانية لتبرير سلوك طاووس ملك/ إبليس بالعصيان«وهي عدم نسـيانه لوصيـة الله بـألاّ يسـجد إلا لـه» التزامـاً اخلاقيـاً بحتـاً. إذ يؤكـد ذلـك إخلاص طاووس ملك/ إبليس لمشيئة الله.

- إذا كان الله قد طرد إبليس /طاووس ملك من مملكتـه حسـب القـرآن فكيـف يسمح له بإغاواء البشر (إنطلاقـاً مـن آدم وحـواء) وهديهـم إلى طريـق الفسق والإنحراف والإلحاد. ثم كيف يأخذ فرمانه من الله ويتصرف كما يشـاء الى أن يحاسب في يوم الدين. «وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون، فإذا سويته ونفخـت فيـه مـن روحـي فقعـوا لـه سـاجدين فسـجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين قال يـا ابليـس مـا لك ألا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبَشرٍ خلقته مـن صلصـال مـن حمأ مسنون، قال فاخرج منها فإنك رجيم وان عليك اللعنة إلى يوم الديـن قـال رب فانظرني إلى يوم يبعثون، قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، قال ربّ بمـا أغويتـني لأُزينـن لهـم في الأرض ولأغوينهـم أجمعين إلا عبـادك منهـم المخلصين».(سورة الحجر 28 - 41).

6 ـ لماذا لا نقول أن طاووس ملك/ ش/ ومن خلال إبائه بعدم السجود لآدم /الصلصال قد اثبت دعائم الوهيته بالعودة إلى الأصل /الله! إذ يقول الحلاج /شهيد التصوف في مناظرةٍ له مع الله تعالى وعلى لسان ش/ طاووس ملك:

«مالي إلى غيرك سبيل واني محب ذليل قال له استكبرت. قال: لو كان لي معك لحظة لكان يليق بي التكبر والتجبّر، أنا الذي عرفتك في الأزل، أنا خيرٌ منه، لأن لي قدمة في الخدمة، وليس في الكونيين أعرف مني بك ولي فيك إرادة ولك فيّ إرادة. إرادتك فيّ سابقة إن سجدت لغيرك فإن لم اسجد فلا بدّ لي من الرجوع إلى الأصل، لأنك خلقتني من النار والنار ترجع إلى النار ولك التقدير والإختيار.

أما أبو الفتح أحمد بن محمد الغزالي المتوفي سنة (520 هـ ـ 1126م) فقد وصف إبليس/طاووس ملك بسيد الموحدين إذ يقول:

«التقى موسى وابليس عند عقبة الطور فقال يا ابليس لِمَ لم تسجد لآدم؟ فقال: كلا، ما كنتُ لأسجد لبشرٍ يا موسى، أدعيت التوحيد ـ وأنا موحد ــ ثم التفت إلى غيره!!! وانت قلت: أرني، ثم التفت إلى الجبل فأنا اصدق منك في التوحيد . قال: أسجد للغير، ما سجدت. من لم يتعلم التوحيد من إبليس فهو زنديق. يا موسى: كلما ازداد محبة لغيري ازددت له عشقاً».

لو تعمقنا في فكرة الشر أخلاقياً وصراع إبليس/ ش مع الله من جهة والتباسه وتمفصله مع فكرة «طاووس ملك» من جهة أخرى، وفسرناها من وجهة نظر مدرسة التحليل النفسي/ الفرويدي، فسوف نستنبط بأن الله وليس أحداً غيره هو الذي خلق الموت والألم وسمح للشيطان ــ إن كان موجوداً فعلاً ــ بأن يغري الإنسان ويغويه ليوصله إلى الدمار الدائم. حتى صار من الصعب على علماء اللاهوت في مختلف الأديان تفسير هذا التناقض/ التوافق وتمييز شخصيتي الله عن الشيطان

بصورةٍ مقنعة. لذلك يبين لنا العالم النفساني «سيجموند فرويد» بأن الصراحة النفسية هي التي وجهت مثل هذه الإسطورة نحو التناقض الذي تنطوي عليه وذلك بتتبع العلاقة إلى وقت الطفولة والصورة اللاشعورية المقيدين نحو تجاهها أيما تقيد،وعلاقتها بظروف طفولتنا الأوديبية لأنْ نشعرَ بشعور الحب/ الكره. فالله والشيطان هي انعكاسات للتناقضات العاطفية التي تتملكها تجاه شخصية واحدة. (38).

لذا فعلم الصدر الايزيدي/ التراث الشفاهي المعروف بطابعه الميثولوجي المتشعب /المشتت يعكس لنا جانباً مهماً عن حقيقة طاووس ملك/ ش كما وجب أن يكون لاكما أُمِر أن يكون.

فعصيان «طاووس ملك» لأمر الله كي يسجد لآدم جاء نتيجة منطقية لما يلي:

1 ـ وعيه التام بأن الله قدوضعه في امتحان مصيري للإختيار بين مشيئته كواجب مطلق وأمره كواجب نسبي من واجبات الطاعة الجزئية حيث يمكن تجاوزها.

2 ـ سموه من النسبي الزائل إلى المطلق الأزلي لأنه أبى أن يذعن لأمر الله إرضاءً لمشيئته. وعندما اختار «طاووس ملك» العصيان/ الجحود فإنه لم يختر سوى ما كان مكتوباً على جبينه وما اختاره الله له منذ الأزل. ولو قدر لله ذاته بأن يختار لما حاد عن سلوك ش/ طاووس ملك قيد إنملةٍ واحدة.

ويحدد لنا الإمام المقدسي علاقة إبليس الجوهرية بالمشيئة الإلهية بقوله:

«خلقني كما شاء، وأوجدني لما شاء، واستعملني فيما شاء، وقدرّ عليّ ما شاء فلم أطق أن أشاء إلا ما شاء. فما تجاوزتُ ما شاء، ولا فعلت غير ما شاء. ولو شاء لردّني إلى ما شاء وهذا اني بما شاء ولكنه شاء. فكنتُ كما شاء.... فمن يكون على القضاء عوني، ومن يطق من القدر صوني. ولكن كل ما يرضيه مني.

رضيٌّ به على رأسي وعيني. يا هذا من حيلةٍ من ناصيته في قبضة القهر . وقلبه بيد القدر. وأمره راجع إلى حكم القدم وقد قضى الأمر وجفَّ القلم»(39).

3 ـ إدراكه لحقيقة آدم المخلوق من الصلصال كونه عبداً وليس معبوداً.

وهذا بشار بن برد الذي اتهم بالمجوسية يعبر عن هذه الحقيقة بإسلوب شعري جميل:

ابليس أفضل من أبيكم آدم فتبيّنوا يا معشرَ الأخيارِ

النارُ معدنه وآدم طينةٌ والطين لا يسمو سمو النارِ

الشمس مشرقةٌ والأرض مظلمةٌ والنار معبودةٌ مذّ كانت النارُ

إذاً فطاووس ملك/ ش/ الذي يبدو متمرداً على أمر الله ظاهراً مذعنٌ في الوقت عينه لمشيئته تعالى باطناً وبلغة علم النفس فإنه ضحى بأناه السطحية بتجاهل الواجب النسبي كي يفوز بأناه العليا/ المثلى/ الله ملبياً نداء الواجب المطلق. ولا بدّ أن الله قد أدركَ ذلك حتى كافأه وِفقَ ما تقوله الميثولوجيا الايزيدية بجعلهِ رئيساً للملائكة وشريكاً معهُ في الكون.

مصادر وهوامش البحث

1 ـ د. غانم هَنا ـ الفلسفة الإجتماعية ـ مطبعة الإتحاد . دمشق 1989 ـ 1990 /ص 47.

2 ـ المصدر ذاته ص 49 وما بعدها.

3 ـ لمزيد من التفصيل عن آلهة الايزيدية راجع بحث د. خليل جندي «نحو معرفة حقيقة الديانة الايزيدية» المنشور في مجلة سه ر هلدان . العددين 4 و 5 /1993.

4 ـ رغم مآخذنا على كتابي «الجلوة» و «مصحف رش/ المصحف الأسود «المقدسين كونهما يعودان إلى عهدٍ قريبٍ جداً إذا ما قورنَ مع تاريخ الايزيدية (ينسب مصحف رش إلى الشيخ عدي بن مسافر المتوفي بين سنة 555 ـ 557 هـ 1160 م أما «الجلوة» فتنسب إلى الشيخ حسن المولود سنة 591 هـ) إلا أن ذلك يعكس حقيقةً من حقائق هذه الديانة ألا وهو طابعها الإنطوائي.

5 ـ يتوارد على لسان الايزيديين بأنهم تعرضوا لاثنين وسبعين فرماناً خلال تاريخهم العسير.

6 ـ د. سامي سعيد الأحمد ـ اليزيدية احوالهم ومعتقداتهم ج1 ـ بغداد ـ مطبعة الجامعة /ص 74 وما بعدها.

7 ـ مصحف رش ـ الفصل الثاني ـ السفر الثامن عشر.

8 ـ د. غانم هَنا ـ مرجع سابق ـ ص 55.

9 ـ لقد اختلف الأمر مع د. ممو فرمان (بحثه المنشور في الثقافة الجديدة ـ العدد 243 ـ 1992 تحت عنوان «ضوء على الديانة اليزيدية») حول ولادة «طاووس ملك». بجعله يوم الأربعاء هو اليوم الذي ولد فيه هذا الملاك. ويدعم قوله بـ كون هذا اليوم / الأربعاء الأول من شهر نيسان الشرقي / عيداً لرأس السنة الايزيدية. ولكننا نرى بأنه ربما يكون تقديس الايزيديين لهذا اليوم واختيارهم للأربعاء الأول من شهر نيسان عيداً لرأس سنتهم الجديدة نابعاً من اعتقادهم بأنه اليوم المقدس الذي ينزل فيه ملاكهم /طاووس ملك من العرش في كل سنة. وسنوضح ذلك لاحقاً في بحث الأربعاء الأحمر آخر بحوث هذا الكتاب.

10 ـ د. ممو فرمان ـ بحثه «ضوء على الديانة اليزيدية» المنشور في الثقافة الجديدة ـ العدد 243 ـ 1992 /ص 104.

11 ـ د. سامي سعيد الأحمد ـ الأصول الأولى لأفكار الشر والشيطان/ ص 43.

12 ـ Philip Kreyendbroek: Mithra and Ahriman ; Bimyamin and Mdk Tawus London 1992 - PP 71 - 74. ونقلاً عن د. ممو فرمان ـ «ضوء على الفلسفة الديانة اليزيدية» المار ذكره.

13 ـ د. سامي سعيد الأحمد ـ الأصول الأولى ... المار ذكره /ص 47.

14 ـ محمد أمين زكي ـ خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور حتى الآن ـ ترجمة محمد علي عوني

/ ص 311 وما بعدها.

15 ـ أخذنا هذا الدعاء من زاهدٍ ايزيدي لقبته جريدة الإتحاد الناطقة بلسان (إوك) في إحدى مقالاتها بـ «بابـا نويل كردي» إسمه /بير تحلو/ وهو من أيزيدية سنجار ، لديه المام كبير بعلوم الدين الايزيـدي. هـرب مـع ذويه من بطش النظام الفاشي وإلى سوريا حيث يمكث حالياً في صومعة صغيرة بـ «قرية مزكَفت» التابعـة لناحية القحطانية/ محافظة الحسكة.

16 ـ نقلناها بتصرف من قصيدة منسوبة إلى الشيخ عدي. ومن الملاحظ أنه تقمص فيهـا ذات الله الـتي انبثـق منها طاووس ملك.

17 ـ «الڤيدا ـ Veda» هي كتاب الهندوسية المقدس، ليس لها واضع معين ومؤلفة من اربع كتب دينية هي:

1 ـ الريغ ڤيدا Reg Veda وهي أشهر الأربعة.

2 ـ ياجورڤيدا Yagor Veda .

3 ـ ساماڤيدا Sama Veda .

4 ـ آثار ڤيداATar Veda .

18 ـ د. ابراهيم مدكور و د. يوسف مكرم ـ دروس في تارخي الهند / ص 14 .

19 ـ يسمي د. خليل جندي الشجرة ذاتها (في بحثه المنشور بـ مجلة سه رهلدان ـ العدد 6 /1993 «نحو معرفة حقيقة الديانة الايزيدية» بـ شجرة الـ «هَلهَل Helhel» وبعـد العـودة إلى رأي بعـض المسـنين الايزيديـن وفهم مغزى هذه الإسطورة تبـين لنـا أن الإسـم الأقـرب إلى الصحـة هـو «هَرهَـر Herhe» الـذي يعـني «الأزلي» في الكردية وهذا يتناسب تماماً مع الفضاء الذي عولجت فيه الرواية.

20 ـ توجد في أواسط شبه القارة الهندية قبيلةٌ تدعى «موري ـ Mouri» تعبد حتى يومنا هذا الطاووس الحـي وتقدسه جلَّ تقديس.

21 - - Bernard. H. SpringeTi, gecreT SecTs of Syria and The Lebanon «London 1922» P259.

22 ـ سليمان مظهر ـ قصة الديانات . بيروت ط1 1984/ ص 58.

23 ـ د. سامي سعيد الأحمد. اليزيدية أحوالهم ومعتقداتهم ج2 بغداد 1971/ ص 185.

24 ـ د. سامي سعيد الأحمد /نفس المصدر/ ص 43.

25 ـ المصدر ذاته/ ص43.

26 ـ صديق الدملوجي ـ اليزيدية ـ الموصل 1949 /ص 9

27 ـ المستشرق الفرنسي (ف. نو). النصوص والبراهين على الملة اليزيدية /ص 26 وما بعدها.

J. W CrowfooT. OP. CIT PP 146 - 147 ـ 28

29 ـ يوسف أفورد ـ اكتشاف صحيفة مسمارية (المشرق) ـ المجلد 7 (1904) /ص 910.

30 ـ د. سامي سعيد الأحمد ـ اليزيدية .... ح/ ص 37.

31 ـ يرى السيد لايارد Layard أن شكل هذه الطواويس يقترب من شكل الأصنام الهندية والمكسيكية التي تُرمز إلى الديك أو الطاووس.

32 ـ نسمع من الفلكلور الشفاهي الأيزدي أناشيد ملحمية/ Sher/ تبيّن وقائع تلك المذبحة التي حلت بالايزيديين» «شه ري فريق باشا» حيث توصف فيها وحشية الفريق عمر وهي في سفك الدماء، لدرجة اصبح اسمه /لقبه عند الايزيديين «فريق Friq» مرادفاً لكلمة إبليس في التقليد الشعبي المتداول.

33 ـ سليمان مظهر ـ مرجع سابق /ص 85.

34 ـ د. مموفرمان ـ بحثه «الأزيدية قبل الشيخ آدي بن مسافر» المنشور في مجلة سه رهلدان ـ العدد 3 /ص 124.

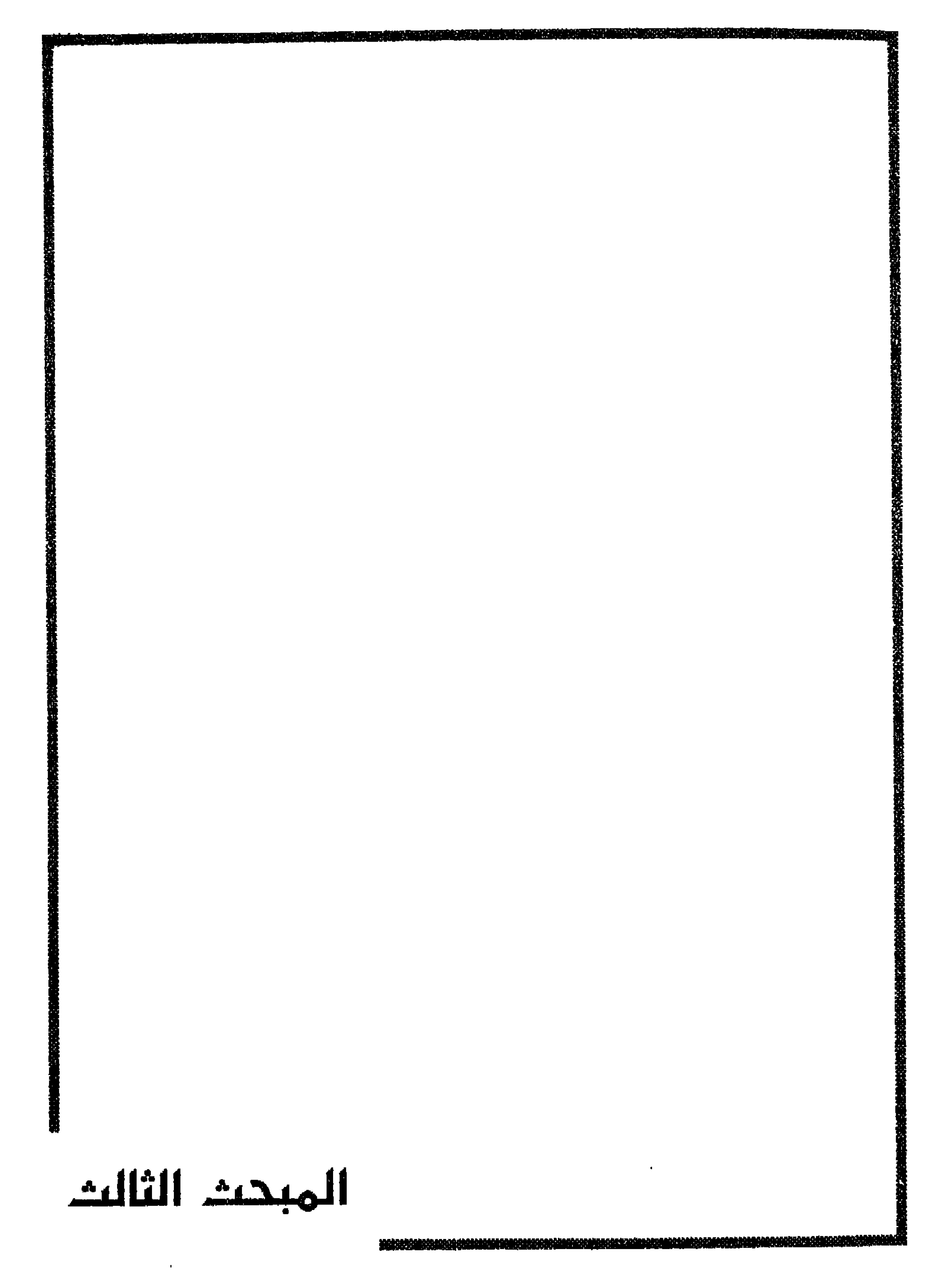
35ـ من الواضح إن «مار» هي لفظة كردية وتعني الحية.

36 ـ الفيلسوف الألماني آرنست كاسير/ ArnesT Kaserer ـ مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية أو مقال في الإنسان ـ ترجمة د. احسان عباس ـ و\دار الأندلس ـ بيروت 1961/ ص 147 ـ 148.

37 ـ د. صادق جلال العظم و د. بشير الداعوق ـ نقد الفكر الديني / ص 81

S. Freud, CivılizaTio And ITS ConTenTs, VI, Brophy . OP . CIT P119 ـ 38

39 ـ الإمام عز الدين المقدسي ـ تفليس إبليس ـ مطبعه مدرسة والدة عباس الأول ـ القاهرة 1906/ص 13.



المبحث الثالث

الجذور التاريخية - الميثولوجية لفكرة الطبقات في المعتقد الايزيدي

لم تُعرف الايزيدية خلال تاريخها الطويل هذا النظام الطبقي (بالمعنى الديني لا الإجتماعي) المعقد كما هو عليه اليوم سوى ووجود طبقتين أساسيتين هما طبقة المريدين / عامة الشعب وطبقة البيّرة (جمع بير - Pir) كهنة الدين. وبهذا نتفق مع رأي أغلب المسنين الايزيديين من شيوخ وبيرة ومريدين.. الخ حين يقولون «سه رئا ڤدا پيرانيى كه ڤناره» أي لأصل طبقة البيرة/ سلالة البيرانية تاريخ بعيد.

أما الطبقات الأخرى فهي محدثة ومبتدعة في الديانة الايزيدية. إذ تعود بتاريخها إلى زمنٍ قريبٍ إذا ما قورن مع تاريخ هذه الديانة الطويل. فهي ترتبط بالمرحلة ما بعد العدوية (بعد مجيء الشيخ عدي بن مسافر المولود سنة 1075 والمتوفي عام 1162م) ، تلك المرحلة الطفروية التي خلفّت وراءها جدالاً كبيراً بين المستشرقين والكتاب والباحثين في الديانة الايزيدية لأنها كانت منعطفاً تاريخياً حاسماً دخلت الايزيدية معها مرحلة جديدة من مراحل تطورها. وبهذا نستطيع القول بأن المنحني البياني لتطور هذه الديانة قد مرَّ عبر مرحلتين أساسيتين يعتبرُ الشيخ عدي بن

مسافر الفاصل الواصل بينهما:

1 ـ المرحلة ما قبل العدوية.

2 ـ المرحلة ما بعد العدوية.

أعودُ وانوه مؤكداً على انني لا أقصد من وراء هذا التحليل نسبَ النظام الطبقي كفكرة تاريخية قديمة إلى الشيخ عدي بن مسافر فهي فكرة لاهوتية أصيلة في جسد هذا المعتقد وما قام به الشيخ هو أنهُ صبغها بصبغة تعقيدية تشابكية مما أوقعها أسيرةً في دوامة اللغز المحيّر.

ومع ذلك فإن هذا النظام الطبقي/ الهرمي الغريب كل الغرابة في المنطقة الهندوايرانية إن دلَّ على شيء فهو يدلُ على ثقافة الشيخ عدي الواسعة واطلاعهِ على اديان الشرق عموماً والايزيدية خصوصاً إضافةًإلى فهمهِ العميق لسيكولوجية الإنسان الايزيدي.

بعد دراستنا للديانة الهندوسية والتمعن في طقوسها تبيّن لنا أنه من الممكن جداً أن يكون النظام الطبقي المأخوذ به حالياً في الايزيدية إنزياحاً بهذا الشكل وذاك من النظام الطبقي الموجود في الهندوسية.

وما يزيد من حماسنا لإتخاذ مثل هذا الرأي هو وجود بعض المريدين الهنود ضمن تلامذة الشيخ عدي بن مسافر «وكان هؤلاء الهنود من طبقة زاهدة عاشت في قرية قريبة من مناطق انعزال الشيخ عُدي في وادي لالش بقرية اشكفت هندوان أي مغارة الهنود. وأخذ بعض أتباع الشيخ عدي بن مسافر منهم استعمال الخرقة[1] التي لا يزال فقراء الايزيدية يرتدونها في الوقت الحاضر» [2].

تقول الإسطورة الهندوسية:

«ان الحياة عندما أطلّت على كل البشر وجدتهم غير متساوين علـى الإطـلاق برغم أنهم جاؤوا جميعاً من «مانو» أول البشر. فالذي حدث تماماً أن أربعة أنـواع من البشر جاؤوا من مانو.

فمـن رأسـه جـاء أفضـل النـاس وأعظمهـم قدسـيةً...وهـم الكهنـة البراهمـــة ومـن ذراعـه جـاء مـن يليهـــم في الأفضليـة وهـــم الملـوك والمحـاربون ويســمُّون بالأكثرية، ومن فخديهِ جاء أرباب المهـن في العـالم بـين زرّاع وتجـار ممـن يوفـرونَ مسائل العيش للكهان والملوك والمحاربين... وهؤلاء هم الفيشية. ومن قدميـه جـاء بقية الناس الذين ينتمون إلى الطبقة السـفلى، وليـس لهـم مـن مهمـة سـوى خدمـة الطوائف الثلاث السابقة في أخسِّ حاجاتها وهؤلاء هم الذين يسمون بالشـودرا... أو المنبوذين»[3].

من الواضح أنه توجد في الهندوسية أربع طبقات رئيسية وهي:

1 ـ طبقة البراهما Brahma:

البراهما في السنسكريتية تعني القوة السحرية العظيمة التي تسعى نحو العبـادة . والإله براهما Brahma هو من بين أكبر آلهة الهندوس.

تختص هذه الطبقة بدراسة اسفار الفيـدا وتعليمهـا لعامـة الهنـدوس كمـا يعـود إليها تبريك القرابين والنذور إذ لا تقبل من الناس إلا عن طريقهم. وعلى الـبراهمي أن يحافظ على الشرائع المدنية والدينية فهم كهنــة الديـن. وتحتـل هـذه الطبقـة قمـة الهرم.[4]

2 ـ طبقة الأكشتريا/ AkshTrya ـ طبقة الجند:

وهي تلك الطبقة التي تغذّت عقول أفرادها بأفكـار الفيـدات وهـم الصـالحون والمؤهَّلون كي يكونوا قواداً أو ملوكاً أو قضاةً أو حكاماً على الناس الآخرين.

بيد أن هذه الطبقة لا تملك حق التصرف دون إذنٍ من البراهمة أو إبداءِ رأيهم في مسائل الحكم.

3 ـ طبقة الويشيا/ Wishya ـ التجار والصناع والزراع:

وهذه مختصة بشؤون التجارة والصناعة والزراعة والمال إذ يقع على عاتقها تدبير احتياجات المجتمع.

4 ـ طبقة الشودرا/ Shodra ـ الخدم والعبيد:

على هذه الطبقة أن تمتثل امتثالاً مطلقاً لأوامر البراهمة الذين يستمدون قوتهم وسطوتهم من ارادة الإله براهما Brahma وما عليهم إلا أن يأمروا كي يُطاعوا من قبل الطبقات الدنيا ولا سيما الشودرا منها.

كما أن العرف الإجتماعي ـ الديني السائد في هذا النظام هو التدرّج الهرمي من الأعلى إلى الأسفل ولا يجوز العكس.

وحين جاء زرادشت تناول فكرة الطبقات هو الآخر مستفيداً من الأفكار والفلسفات ومعتقدات الأديان السابقة له. فجمع بين فكرة الطبقات عند الرومان واليونانيين بمفهومها الإجتماعي وبين فكرة الطبقات عند الهندوس بمفهومها اللاهوتي ـ الديني وكانت النتيجة إرساء الدعائم لنظام طبقي جديد ومؤلف من أربع طبقات جاء ذكرها في الأفستا باسمٍ «بيشترا PishTra » أي الجماعات أو الطبقات باللغة الأفستائية وهي :

1 ـ بيشوايان/ Pishwayan :

وهي طبقة الزعماء إذ تحتل قمة الهرم.

2 ـ رزميان/ Rizmian

وهي طبقة المحاربين والفرسان التي إليها تعود أمور الدفاع عن مصالح القوم.

3 ـ كشاوزران/ Kshawizran:

أي طبقة المزارعين وهي مختصة بأمور الزراعة واصلاح الأراضي لتأمين مستلزمات القوم.

4 ـ دَستورزان/ DesTurzan

وهي طبقة الحرفيين والصناع الذين يختصون في امور التجارة والصناعة وتوظيف الأموال.

كما هو ملاحظ فإن هذا النظام الطبقي/ الديني يعكس جانباً اجتماعياً أكثر من إنعكاسهِ للجانب الديني لذا جاءت تسميةُ الطبقات بصبغتها الإجتماعية. ويعود السبب إلى الظروف التاريخية والإجتماعية التي مرَّ بها الإيرانيون. «إذ عاش الإيرانيون في خوفٍ دائم من القبائل الوافدة المنقضّة، فقد أخذوا ينظرون الى كل رجلٍ لا يؤدي عملاً نافعاً على أنه رجل شرير و لم يحترموا سوى الذين يفلحون الأرض ويرعون الأغنام والماشية لأنهم هم وحدهم الصالحون»[5]

وقد ورد ذكر هذه الطبقات في الأجزاء الأخرى من الأفستا بأسماءٍ أخرى وهي:

«اسـهروَن AThavran أو اتهوررون AThavrun . وفي الفهلوية آسروك أو آسرون Asrun وتعني الموكّل على النار ويقصد بها طبقة العلماء او الزعماء الدينيين/ الطبقة الروحانية. ثانياً رتهئيشتر RaThaeshTar أو رتهئشتا أو رتهوئشتا وفي القهلوية إرتشتار ArTeshTar وتعني المحارب أو الفارس وتطلق على المجموعة الثانية وتعني (المقاتلين والمحاربين والفرسان) ثالثاً واستريا VasTrya وفي الفهلوية واستريوش وتعني المزراع»[6].

لو تعمقنا في تركيبة النظام الطبقي لدى الايزيدية فسوف نستشف بأنه

مصبوغ بصبغةٍ تعقيدية أكثر مقارنةً مع نظيره في الهندوسية والزرادشتية.

إذ أن الإنتماء الطبقي في المجتمع/ الدين الايزيدي محكومٌ بالولادة وبذلك تصبح إمكانية الحراك الطبقي «أي الانتقال من طبقة إلى اخرى» معدومة بل مستحيلة. الأمر الذي يضعف بدوره إمكانية التداخل الطبقي لتصبح كل طبقة خاضعة لسطوة التولد الذاتي «التزاوج بين أفراد الطبقة الواحدة دون سواها».

ومع كل هذا فإننا نلاحظ في الأديان الثلاثة خطين رئيسيين تسير عليها فكرة الطبقات هما:

1 ـ الجمع بين السلطتين الدينية /الروحية والدنيوية/ الزمنية بحيث تصبح السلطة مشروعة بموجب قانون إلهي. وتعتبر نظرية السلطة باعتبارها نابعة من مصدر الهي من أقدم النظريات تأثيراً في التاريخ إذ يعدُّ الحاكم من طبيعة إلهية يستمدُّ قوته وسلطته بتدبير من العناية الإلهية فهو الحق الإلهي عينه.

2 ـ تدرج النظام الطبقي في الديانات الثلاث تدرجاً هرمياً حيث تقع الطبقة ذات الأكثر شأنا وامتيازاً في قمة الهرم في حين تقبع الطبقة الأحطّ شأناً في أسفل قاعدة الهرم.

إن دراسة البنية التركيبية للمجتمع الايزيدي توصلنا إلى معرفة طبقتين رئيسيتين فيها:

1 ـ طبقة المريدين/ Mirid :

وتتشكل من عامة الناس الذين عليهم الإمتثال للطاعة والأمر كواجب ديني ـ دنيوي. .

2 ـ طبقة الدنافين /Dinav :

«دناف» بالكردية تعني ذا إسمين وتستخدم بمعنى المتقمص لروحين في التراث الايزيدي المتداول. لهذا ترى الايزيدية في كل «دنافٍ» من دنافيها متقمصاً لروحٍ أخرى تسموبذاته تسمى بالـ «خوه دان» وهي جمع لكلمة «خوه دى» التي تعني الله في الكردية. كما تأتي أيضاً بمعنى صاحب أو مالك. أما ما هو متوارث من علم الصدر الايزيدي فإن لكل ملاكٍ/ إلهٍ في الايزيدية «خوه دانه» الخاص به تتجسدُ في ذات مريديه/ أتباعه بالتناسخ كروح مقدسة سامية. وهنا يمكنُ سر تقديس الايزيدية واحترامها لطبقة الدنافين /الروحانيين وينظر الايزيديون إلى دنافيهم من منظار القداسة للأرواح المتقمصة/ المتناسخة «خوه دان» بغض النظر عن أناهم السطحية ـ الإجتماعية.

إن هذه الطبقة الأخيرة وأوجه تسميتها تعكس جانباً مهماً من جوانب اعتقادات هذه الديانة ألا وهي إيمانها بتناسخ الأرواح /تكرار المولد الذي تعتقد به أديان أخرى كالهندوسية والبوذية والمعتقدات الصينية واليابانية القديمة واليهودية..

والتناسخ يعني رجوع الروح بعد خروجها من جسمٍ ما إلى العالم الأرضي في جسم آخر. وسبب التناسخ يعود إلى:

1 ـ إن الروح خرجت من الجسم ولا تزال لها أهواء أو شهوات مرتبطة بالعالم المادي لم تتحقق بعد.

2 ـ إنها خرجت من الجسم وعليها ديون كثيرة في علاقاتها بالآخرين لا بدّ من آدائها. فلا مناصَ إذاً من أن تستوفي شهواتها في حيواناتٍ أخرى. وأن تتذوق الروح ثمار أعمالها التي قامت بها في حياتها السابقة.

3 ـ إن للروح دورةً متكاملةواحدة فحين تخرج من جسدٍ لتتقمص بجسدٍ آخر فهذا يعني أنها في طريقها للعودة إلى الأصل/ روح العالم.

4 ـ إنه تبرير لاهوتي لسمو الروح على المادة.

إن فكرة عبادة الخوه دان/ روح العائلة هي فكرة دينية أصيلة وتعود إلى المراحل الأولى لظهور الخيالات والأفكار الدينية البدائية لدى الإنسان حينما كان يقف عاجزاً عن تفسير الظواهر الطبيعية وتأويلها تأولاً منطقياً علمياً. ويروي لنا سليمان مظهر في كتابه «قصة الديانات» روايةً طريفة يبين فيها كيفية تشكل هذه الفكرة في خيال الإنسان وتبلورها ثم سيطرتها على سيكولوجيته بعدّها حقيقة لاهوتية واقعة. إذ يقول:

لا يمكن أن تقتصر على الطبيعة وحدها.. بل هناك أرواح اخرى مخيفة... تبدو في الظلام. ويتساءل الناس ... كيف عرفت؟؟.

ولقي القصاص بنظرة إلى الغابة ويقول: أذكر مرة أن أحاطت بنا النار في الغابة. وكنتُ أنا وأمي وأُختايَ نلتقط التوت، عندما أحاطت بنا النار التي راحت تجتاح التل وتلتهم الأشجار وكأنها ثورٌ ضخم يلعق بألسنة اللهيب كل شيء حتى العشب. وتلفتنا حولنا دون أن ندري ماذا نصنع (نفعل) فالنار من امامنا ومن خلفنا. ولم يكن من سبيلٍ لنا إلا أن نحفر حفرةً ونقفز بداخلها وننتظر.وعندما انتهت (خمدت) النار وخرجنا من الحفرة وجدنا انفسنا وليس من ضررٍ أصابنا... فمَن الذي حمانا من الإحتراق في تلك النار الرهيبة؟

وبالفعل تصبح مسألة محيّرة في ذهن الإنسان البدائي.. ويسمع رداً على حيرته يقتنع به.. لأن قائله قد فكرَّ فيه قبله واقتنع بما يصوره. إنها روح العائلة...!!

روح العائلة... إننا نعرف أن روح االشمس تقيم في الشمس وروح القمر تقيم في القمر ولكن أين تقيم روح عائلتك تلك؟ ويجيب صاحب الخيال البارع:

تقيم في ضفدعة.. ولكنها ليست ضفدعة عادية بالطبع.. بل هي في حجم ذلك التل. لها عين واحدة وينبت في جبينها قرنٌ ذهبي.. لقد رأيناها في ذلك اليوم حين احاطت النار بناقي الغابة.

ويهز الناس رؤوسهم ويقولون لم نرَ مثل هذه الضفدعة قط...

ويجيب الرجل : لي صديق سأسأله كي يصور لكم روح عائلتنا حتى يمكن لكم أن تروها»[7].

وهكذا انتقل الإنسان البدائي بتفكيره إلى مرحلة جديدة. التفت فيها إلى أرواح أسلافه والبَسها زيّاً إلهياً ثم سجدَ لها وعبدها بعد أن جسدّها في الطواطم والأوثان. وهنا خطا الإنسان مرحلة السجود للطبيعة وظواهرها منتقلاً إلى مرحلةٍ أخرى جديدة ألا وهي مرحلة العبادة الطوطمية.

ولا تزال بعض أشكال هذه العبادة منتشرة في بقعٍ مختلفة من العالم.

فعقائد الصين القديمة ولا سيما الكونفوشيوسية والداوية لا تزال تُؤلّه أرواح الأجداد السالفين وهي من التقاليد الدينية العريقة حيث توجب عبادتها وتقديسها في الحياة اليومية تمجيداً و تعظيماً لذكراها الخالدة.

و«براهما ـ Brahma » في ا لهندوسية هو أساسُ كل العالم لأنه روحها المقدسة الخالصة. وبمجرد إنتهاء الروح ـ أية روح ـ من دورتها الحياتية فإنها لا بدّ أن تحنَّ للأصل وتعود إليه متحدةً مع روح الإله براهما Brahma / أصل العالم. فالروح إذاً تمرُّ في أدوارٍ عديدة قبل إتحادها مع براهما Brahma إذ تتقمص في اجسادٍ لاحصر

لها خلال دورتها الحياتية. والروح هي روح لأنها مستقلة عن الجسد المتقمص به. لذا لا تختلف روح الإنسان عن أرواح الحيوانات الأخرى إلا بالتقوى والعمل الصالح.

أما الإسطورة البوذية فتقول «أن سيدهاتا (بوذا) قد عاش ـ قبل أن يصبح المستنير ـ خمسمائه وثلاثين نوعاً من الحياة فعاش إلهاً اثنتين واربعين مرة، وملكاً خمساً وثمانين مرة، وأميراً اربعاً وعشرين مرة وعالماً اثنين وعشرين مرة كما عاش لصاً مرتين وعبداً مرة واحدة ومقامراً مرة واحدة ، تماماً كما عاش عدة مرات في أجساد أسد فغزال فجواد فنسر فثور فثعبان فضفدعة..؟»(8).

وبهذا يكون الإعتقاد بتناسخ الأرواح هو السبب الحقيقي الكامن وراء تقديس بعض الحيوانات بل عبادتها في الطقوس الهندوسية والبوذية.

غير أن اليهودية تنظر إلى هذه الظاهرة من زاويةٍ أكثر تطرفاً حين ترى بأن أرواح اليهود هي جزءٌ لا يتجزأ من روح الله وما أرواح الناس الآخرين إلاّ أرواح خبيثة تليقُ بأجساد الحيوانات. وأكثر العقوبات عذاباً في العقيدة اليهودية هي عقوبة المرتد. إذ تنحدر روحه وتتجسد في أجساد أحطّ الحيوانات قدراً كي تتعذب في نار الجحيم.

إن ظاهرةتناسخ الأرواح كانت ولا تزال محوراً من المحاور التي استقطبت إهتمام فلسفات ومعتقدات دينية عديدة. وما الايزيدية إلا واحدةً من تلك االمعتقدات التي اتخذت من هذه الظاهرة تربةً خصبة تستلهم منها وَحيَها.

ومن يتتبع التراث الديني لهذه الطائفة سيكتشف بذاته الدور الذي يولونه لهذه الظاهرة في أدعيتهم وتراتيلهم وهم يبالغون في وصف رجالاتهم الدينية مبالغة كبيرة إذ يجارونهم إلى درجة الألوهية . وهذه مقتطفات من بعض الأدعية الدينية:

شيخادى شيخه و هنه	الشيخ عدي/ آدي هو شيخٌ بحق
بينايا چاڤيت منه	هو نور العين
چه ند ئوسفه ت ژي وچنه	يتجلى في أوصافٍ عدّة
شيخادى مه لك شيخ سن شيخيتى قه بلاند	الشيخ آدي قبل ملك شيخ سن ملاكاً.
عه رش وكورسي بورا خه ملاند	وكللّ العرش به
ميروملِيا كه تال عه زمانا بووان هلهلاند.	فلاقى الطيب وحسن المقام من الملائكة والخاصة في مملكة السماء.
شيخادى شيخ مه قبووله	الشيخ آدي شيخ مقبول
زه ينا ندى هه ستيى ستووره	(لم نعرف المقصود بهذه الجملة لذا تركناها دون ترجمة)
ديوانا شيخادى شفقه تو موحبه تو نوره	من ديوانه تشرق الرأفة والمحبة والنور.
شيخادى شيخى كافى /عه ولى وى ل ته ليفى	الشيخ آدي هو شيخ الكهف. بدايته هي الألف.
له وح ل محفوظ ناڤي خودى	هو اللوح المحفوظ لإسم الله
شيخادى شيخ به ركاته	الشيخ آدي هو شيخ البركات
ب وى نورى كرخه لا ته	أُهدي بالنور وساماً
له وفرى چو سماواته	لذا خلق في السموات إلهاً. «9»

ونأخذ من دعاء «شه هدا دينى» أي شهادة الدين ما يلي:

سولتان شيخادى په دشى منه	السلطان شيخ آدي هو إلهي
شيخوبه كرمه ولا يى منه	الشيخ أبو بكر مولاي
سولتان ئيزي په دشى منه	السلطان ايزي إلهي
حاجى مهه مه د پيبري منه	حاجي مهمد مربيي
شيخ فه همه دمه ره بيى منه	شيخ مهمد مربيي
طاويسىمه له ك شه هده وئيمانا منه	طاووس ملك شهادتي وإيماني.
كانييا سپي مورامنه	العين البيضاء - وهي في لالش) معموديتي

مه له ك شيخ سن باخويبي منه	الملاك شيخ سن سَلَفي
شيخ شمس مه سه بو بيينا يا چاڤيد منه	الشيخ شمس مذهبي نور عيني «10»

وبسبب سطوة هذه الظاهرة على طريقة تفكير أتباع هذه الطائفة وغزوها لمساحة واسعة من تراثهم الديني نرى الكثيرين منهم يعجزون عن إعطاء صورة حقيقية عن شخصية رجالاتها الدينية كالشيخ عدي بن مسافر والشيخ حسن بن عدي الثاني بن أبي البركات بن صخر بن مسافر وغيرهم.

ويعد ذلك سبباً رئيسياً وراء اعتقاد الايزيدية بظاهرة التعدد والألوهي PolyTheism . فالايزيديون يعيشون جنباً إلى جنب مع آلهتهم في مستنقع التناسخ والتقمص الروحي المتجسد في دنافيهم وكي يتقرب الايزيدي من آلهته فعليهِ احترام وتبجيل المتقمص لروحها منهالاً عليه بالنذور والصدقات /فتو FITU كواجب ديني ودنيوي مقابل كسب رضاهم (ألآلهة) كحق آخروي.

ولظاهرة الفتو FITU /الصدقة جذورها التاريخية ـ الميثولوجية البعيدة في جغرافية الأفكار الدينية القديمة.

ففي الهند مثلاً كان يعيش الكهنة البراهميون على الصدقات التي كانت تُجمع من الطبقات الأخرى مشاركين إياها في أكل ثمرة جهودهم مقابل أن يتوسلوا لهم إلى الإله براهما Brahma كي ينجيهم من شر العالم. وتعتبر طقوس التطواف حول الطواويس والتبرك بها أثناء جولاتها بين الايزيدية وغيرها من الطقوس أدلة شاهدة على هذه الظاهرة.

فحتى يقترب الايزيدي من روح إلههِ الأكبر طاووس ملك ويكسبَ رضاهُ حسب فرائض عقيدته عليه ألاّ يبخل في تبذير المال والصدقات على رموزه وتمائمه/الطواويس. ويكون المستفيد الوحيد من هذه العملية هو

الأمير بالدرجة الأولى الذي يملك الحق المطلق في تأجير الطواويس . وثم القوالون حيث إليهم تعود عملية الإستئجار وتجوال الطواويس بين القرى والأقضية الايزيدية. ويجلب هؤلاء معهم خلال هذه الجولات البراة والماء من عين زمزم والعين البيضاء/ كانيا سبي[11] وبعض رموز المقدسات الأخرى لتوزيعها (بل وبيعها) على الايزيديين المتلهفين لإستحواذها وتبركة بيوتهم بها مقابل المال والصدقة.

وقد لاقهت هذه الظاهرة رواجاً واسعاً بين أتباع الديانة الشين تاوية التي تعتبر من أقدم العقائد في تاريخ الفكر اللاهوتي باليابان. وتشكل عبادة الطبيعة بكل ما فيها من ارواح خيرة وشريرة أساساً من اسس هذه العقيدة. بالإضافة إلى أشكال العبادة الوثنية والطوطمية الأخرى.

وكان الكهنة الشين تاويون شأنهم كشأن الدناقين الايزيديين. يعيشون على الصدقات والأموال المُجمّعة من عامة الشعب. لأنهم وبحكم سلطتهم الروحية يتمتعون بالحق الألوهي في مشاركة الرعية أموالهم التي هي في حقيقتها ملك للثنائي الألوهي ايزاناجي (الزوج) Izanagei و ايزانا مي Izanamei (الزوجة).

وقد ابتدع هؤلاء الكهنة في مرحلةٍ من مراحل تطور هذه العقيدة ما تسمى بـ «صكوك العمر» إذ كانت بدعة أغروا بها الناس البسطاء لكسب المال من ورائها. فإذا ما أراد مؤمن بتمديد سنيّ عمره عليه أن يسرع لشراء تلك الصكوك مقابل دفع الرسوم التي تترتب عليه إلى الكهنة.

ولم تكن هذه الظاهرة حكراً على الأفكار الدينية البدائية وإنما تعدتّها إلى أفكار ومعتقدات أخرى في فترات متأخرة من التاريخ. ففي الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي ابتكر البابا ليو العاشر ـ زعيم الكنيسة الكاثوليكية

في روما ـ صكوكاً مشابهة لصكوك الكهنة الشين تاويين وسماها آنذاك بـ «صكوك الغفران» وأمر بتداولها وبيعها في كل انحاء العالم المسيحي. وحسب الحجة الدافعة وراء إبتداع هذه الصكوك فإنها كانت كفيلة بغفران مشتريها من الذنوب والخطايا التي ارتكبها خلال حياته... وكان هذا سبباً من الأسباب الكثيرة التي أدت إلى حدوث شرخٍ في هيبة الكنيسة الكاثوليكية وظهور أفكار كالفن Kalven ومارتن لوثر MarThen LoTher اللذّين مهّدا الأرضية الأساسية التي تحركَ عليها الفكر البروتستانتي فيما بعد. على الرغم من واقع التعدد الألوهي ــ PolyTheism الذي تعيشه الايزيدية وتعدد أفخاد طبقة الدناقين/ الروحانيين كظاهرة تابعة وعلى اعتبارهم متقمصين لأرواح تلك الآلهة وتجسدّها للخوه دان كممثلين لها، بالرغم من ذلك كله فإننا لا نجد في الايزيدية أثراً لخارطة الإنقسامات وتشرذمها بين الفرق والمذاهب. إذ تنوس كل الآلهة حول مركز ثقل واحد متمحور في الثالوث الأقدس لدى الايزيدية/ الله (خوه دي) ـ طاووس ملك ـ الشيخ آدي/ .

* طبقة الدناقين /الروحانيين:

تتفرع هذه الطبقة إلى عدة طبقات وهي:

1 ـ طبقة الأمراء/ Mir :

تعيد هذه الطبقة اصولها إلى نسب الشيخ ملك بن الشيخ ابو بكر/ ميكائيل المخلوق يوم الثلاثاء كما هو وراد في مصحف رش لهذا سُمّيوا بالشيخو بكريين. لذا والامراء هم في الحقيقة شيوخ قاتانيون ولم يكن في البداية يشكلون طبقة مستقلة في جسد المعتقد الايزيدي إلا ان أهمية مكانة الأمير ونفوذه ودوره بين الايزيديين بلور هذه العائلة في مرحلة متأخرة من تاريخ هذه الديانة إلى طبقة بحدّ ذاتها.

وحسبما هو متعارف عليه بين الايزيديين فللأمير حق مشروع في تسلم السلطتين الدينية والدنيوية وهو الآمر والناهي في كل صغيرةٍ وكبيرة بين أبناء الطائفة الايزيدية.

ويستمد الأمير سلطته وهيبتهُ من العناية الإلهية بإعتباره محاكياً لها وممثلاً شرعياً للشيخ عدي في الحكم على الرعية. ونتيجة أهمية منصب الإمارة ونفوذها الواسع ومكاسبها المالية الطائلة فقد أصبحت مجرد هدفٍ وغاية لتحقيق الأطماع الشخصية لا وسيلة للعدل والانصاف بين الرعية بما فيه الخير لعامة الايزيديين. ولنا في التاريخ أمثلة غير مشرِّفة تبين كيف أن الإمارة اصبحت سبباً للكثير من المشاحنات والخلافات بين الأمراء أنفسهم سواء بين الإخوة أو بين الأب والأبناء للفوز بمنصب الإمارة. الأمر الذي اثار سخط الأغلبية الساحقة من الايزيديين وزادت من نقمتهم المضمرة على هذه الطبقة.

وللأمير حرية التصرف بكامل الممتلكات العائدة إليه من لالش . فهو المسؤول عن إدارة أعمالها بالإضافة إلى مسؤوليته عن الطواويس/ السناجق التي تختزن في دار خاصة بها تسمى بـ «خاناتا ويسي» أي خانة الطاووس.

ويعتقد الايزيديون عدا الأمراء واليسميريون طبعاً ـ أن الإمارة من الناحية التاريخية هي من حق اتباع «الشيخ سن» وهم الأولون بها. أما تولي الأمراء لعرش الإمارة فجاء عن طريق النصب والإحتيال حينما قام الشيخ محمد الكردي الأربلي وهو من أتباع الشيخو بكرية باغتصاب الإمارة وانتزاعها من عائلة الشيخ سن بعد أن قتل عدداً كبيراً من أفراد تلك العائلة.

20 = ما يلي ـ أما زواج هذه الطبقة فهو محصور بين سلالة الشيوخ القاتانيين البسميريين . ومع ذلك فقد حدث في التاريخ بعض التجاوزات كزواج الأمير

حسين بك بن علي بك من أسرة الشيخ عبدال بن بسلك التي تعود بأصولها إلى سلالة شيخ شمسا. كما جمع الأمير سعيد بين الأختين ضارباً بذلك الشريعة الايزيدية عرض الحائط.(12).

ويتم تولي الأمير لمنصب الإمارة عن طريق الوراثة. لذا لا يجوز خلع الأمير أو عزله أو حجب الثقة عنه ولا يفقد سلطته إلا بعد موته.

وتعتبر قرية با عدرى في قضاء الشيخان مركزاً لأسرة الأمراء حيث يوجد فيها قصر الإمارة.

2 ـ طبقة البسميرين / Pismir

تفيد كلمة بسمير في اللغة الكردية معنى ابن الأمير أو قريبه. وبهذا يصبح البسميريون أبناء عمومة الأمراء. ويمكن القول أن البسمريين هم شبه طبقة وليسوا بطبقة متبلورة لأنهم مندمجون في لدن طبقة الأمراء ويصعد البسميريون نسبهم إلى منصور بن الشيخ ابو بكر. ومن الناحية المنطقية كان من الواجب أن تحتل هذه الطبقة الدرجة الثانية بعد الأمراء في التدرج الهرمي ـ الطبقي للايزيدية وهذا ما لا يرضي مصالح الأمراء لذا قلّصوا من دور هذه الطبقة شيئاً فشيئاً حتى باتت طبقة هامشية كغيرها في الآونة الأخيرة.

ولا يحق للبسمير (شرعاً تقليد منصب الإمارة لأنه دون الأمير في كل حال. غير أن التاريخ يخبرنا عن «تولي خنجر بك المنتمي للطبقة البسميرية لمنصب الإمارة بأمر من اسماعيل باشا امير العمادية آنذاك. والذي قام بقتل الأمير (الشرعي الأسبق / جولوبك/. و لم تدم هذه الإمارة أكثر من سنةٍ واحدة»(13)

ويتوارد ذكر هذه الحادثة كمأساةٍ أليمة على السنة الأسرة الأميرية التي ترى فيها مصادرة (للحق الشرعي). وتعتبر سنجار وعين نسفي وبا عدري مناطق

السكن الأساسية لهذه الطبقة.

3 ـ طبقة الشيوخ /Shek :

لهذه الطبقة أيضاً قدسيتها وحرمتها الدينية والإجتماعية بين الايزيديين حتى باتت ليوتهم قدسية خاصة لدى الايزيدي يتم التبرك والتطواف فيها أيام الأعياد والمناسبات. حيث توجد فيها عادة النياشين /Nıshan أي الرموز والمقدسات الممثلة لـ طاووس ملك والشيخ آدي.

ويرى السيد عبد الرزاق الحسني أن الشيخ هو عبارة عن «شيخان»:

أ ـ شيخ رحماني: وهو الشيخ عدي بن مسافر نفسه.

ب ـ شيخ عير رحماني: وهم من سلالة الشيوخ الذين كانوا في زمن الشيخ عدي (الرحماني) منهمكين في جمع المال والملاذ بيد أن الشيخ عدي قد قام بأ×ذ أموالهم ووزعها على الرعية وحولّهم عن ذلك ثم أمر الناس بإعطائهم الأموال (14) ولا يزال الأيزيديون حتى يومنا هذا ملزمون دينياً باعطاء الشيخ الصدقات/ الفتو Fitu من أموالهم كواجب ديني /دنيوينحو فرائض ديانتهم.

وتتفرع من هذه الطبقة ثلاثة أصول رئيسية هي:

أولاً ـ آداني /Adani : ولهذا الأصل ستة فروع رئيسية:

أ ـ اتباع ملك شيخ سن وهو الرئيس لكل طبقة الشيوخ

ب ـ اتباع الشيخ ابراهمي الختمي.

جـ ـ اتباع شيخي يتيما/ شيخ الأيتام

د ـ اتباع ملك شرف الدين Sharfadien

هـ ـ اتباع الشيخ زندين.Zamdien

و ـ أتباع الشيخ موسى Shekmus

ثانياً ـ قاتاني/ KaTani :ويتفرع منه فرع رئيسي إضافة إلى فروع فرعية أخرى:

أ ـ أتباع الشيخ أبو بكر < أمراء / پسميريون

جـ ـ أتباع الشيخ عبد القادر

د ـ أتباع الشيخ مهمد الياظي

هـ ـ أتباع الشيخ اسماعيل العنزلي

ب ـ أتباع الشيخ ماوي پسميريون

ثالثاً ـ شمساني/ Shamsani : لهذا الأصل سبعة فروع رئيسية وهي:

أ ـ اتباع الشيخ شمس/ Shêshims

ب ـ أتباع سجّادين/ Sijadien

جـ أتباع ملك آمادين Amadien

د ـ أتباع ملك ناسردين Nasirdien

هـ أتباع الشيخ مند Shek Mend

ز- أتباع ملك بابا دين Babadien

و ـ أتباع ملك فخر الدين Fekredıen

وتترأس طبقة الشيوخ سلالة الشيخ حسن/ سن لذا يسمى كل من ينتمي إليها بالـ «پيش إمام» أي رئيس الأئمة. وتعتبر هذه السلالة مصدراً أساسياً من مصادر الشريعة الايزيدية كونها الأسرة الوحيدة التي يحق لها تعلم أمور الدين والقراءة والكتابة.

وهناك رواية ترد على ألسنة المسنين الايزيديين بهذا الشأن إذ تقول:

«عندما نزل يزيد بن معاوية من السماء وحارب الحسين بن علي وغلبهُ واستقر قرابة ثلاثمائة عام في الشام متربعاً عرش الحكم وجمع حينها كافة الكتب والمخطوطات وأحرقها ثم حصر تعلم القراءة والكتابة في اسرة الشيخ حسن وحدهم وحرمّها على سواهم».

أعتقد بأن هذه الرواية تعكس جانباً من الحقيقة (لا أقصد حقيقة مجرى الأحداث في الرواية فهي اسطورة بدون شك ولكن ما أقصده هو حقيقة الإعتقاد بكون اسرة الشيخ حسن هي الأسرة الوحيدة التي يحق لها تعلم القراءة والكتابة) . سيما لو علمنا أن الشيخ حسن هو واضع إحدى الكتب المقدسة لدى الايزيدية

/الجلوة/ كما أنه يعتبر الهاً للوح والقلم ولاروماتيزم الأبيض (بابى سيى).

* البابا شيخ/ باقى شيخ Bave Shek :

ينتمي البابا شيخ إلى اسرة ملك فخر الدين ويعتبر الشيخ الأكبر بالنسبة لطبقة الشيوخ بل لعموم الايزيدية لأنه الأكثر إلماماً بعلوم الدين وله الحق في سنّ الشرائع والقوانين مع المجلس الرئاسي الروحاني للطائفة الايزيدية. كما يعتبر أمره وكاعته واجباً على سائر الايزيذيين وهو ملقب بـ «يه ختيارى مه ركه هي» بين أوساطهم. وللبابا شيخ واجبات دينية تفرض عليه نوعاً من الزهد والتنسك كصيام اربعينيتي الصيف والشتاء. كما يعتبر مسؤولاً عن السجادة التي تُنسب الى ملك فخر الدين إذ يخرج بها أيام المناسبات والأعياد وخصوصاً عيد الجماعية كي يتبكر بها الايزيديون ولا يجوز تسليمها إلا للكواجك كونهم يخضعون لسلطته فهو المسؤول عن إدارة أعمالهم وتدبير أمورهم ويلتقي بهم بين كل فترة وأخرى ليوجههّم نحو درب الصواب.

وهناك بعض الطقوس التي يلتزم بها البابا شيخ دون غيره. فهو لا يأكل إلا بملعقته ولا يشرب إلا بفنجانه كما لا يجلس إلا على سجادته ويتمنطق بحزام يلفّهُ على خصره سبعة مرات ويسمى الحزام بـ «رستابابي شيخ».إن هذا الحزام ـ المقدس طبعاً ـ يذكرنا بالزنانر الزرادتشي الذي يلف به الخصر ثلاث مرات وفيها أربع عقد اثنتان في الخلف واثنتان في الأمام وهي في الزرادشتية إشارةٌ يتذكر بها المؤمن فرائض ديانته وواجباته الحياتية. وباعتقادي أنّ لـ «رستبابي شيخ » المهمة ذاتها.

وإذا كان تربع الأمير على عرش الإمارة محكوماً بالوراثة فإن تنصيب البابا شيخ يتم عن طريق الإنتخاب ورضى أغلية الايزيديين . ومن هنا يأتي سر احترامه وتقديسه.

4 - طبقة البيرة/Pir :

البير في الكردية تعني المسن/ العجوز إلا أنها تأتي بمعنة الكاهن أو شيخ الطريقة في التراث الايزيدي .[15] وتأتي « Per — Peri في اللغة الإنكليزية بمعنى الباري أو الياري وهو مخلوق خرافي تزعم الأساطير الفارسية أنه من نسل الملائكة الساقطة وتعني فتاة أو إمرأة.

وكما أسلفنا فإن لهذه الطبقة جذورها التاريخية العميقة في تاريخ الايزيدية إذ كانت الطبقة الروحانية الوحيدة في المرحلة ما قبل العدوية. الأمر الذي أهّلها لمسك زمام المبادرة وقيادة المجتمع الايزيدي دينياً ودنيوياً. والجدير ذكره هو أن مصطلح البيركان شائعاً في معتقداتٍ وأديانٍ هندوايرانية أخرى فهناك كهنة زرادشتيون اشتُهِروا بهذا اللقب مثل البير شاليار الذي يعدُّ من كبار الكهنة في هذه الديانة وهو صاحب كتاب «النصائح» حيث لا يزال يؤخذ به على أنه كتاب مقدس إلى جانب الإفستا والفهاتات. بيدَ أن نجم هذه الطبقة الأصلية قد طفق بالأفول وتقلص دورها في الحياة الإجتماعية والدينية بالمجتمع الايزيدي بمجيء الشيخ عدي بن مسافر الذي قام بتنصيب طبقات جديدة على أنقاض هذه الطبقة فكانت الضحيّة. ولكن هذا لا يعني فقدان البيرة لكل مزاياهم بإعتبارهم طبقة من طبقات الدناقين/ الروحانيين، بل لا يزالون يحظون على احترام كبير في المجتمع الايزيدي ولهم شأنهم ومكانتهم.

وتقع على عاتق هذه الطبقة مهمة تربية الأجيال الايزيدية تربية دينية سوية بإرشادهم وإيعاظهم لهذا ليس للبير مرب كسائر الايزيديين لأنه هو المربّي. بالإضافة إلى هذه المهمة التربوية فالبيرة يؤدون بعض المهام والواجبات الأخرى كغسل الميت وترتيل الأدعية الخاصة على المرضى لشفائهم وتطهيرهم من الأمراض.



«پير تحلو » أحددنا في الايزيدية الأكثر زهداً ممن عاشرتهم خلال جولاتي بين القرى والأقضية التي يسكن فيها الايزيديون

والجدير ذكره هو أنه في حالة هذيانٍ نرڤانوي يتقرب فيها من عالمه الآخر.. الله ... طاووس ملك... الشيخ عدي/ شيخادي كما تظهره الصورة ٠

وكما أن لكل شيخ پيره الخاص به كذلك يجب أن يكون لكل پير شيخه الخاص.

يقال في التراث الايزيدي أنه كان لهذه الطبقة في الأزمان السالفة 90000 عائلة من الپيرة إلا أنهم انقرضوا مع مرور الزمن وتقلصوا إلى أربعين عائلة فقط. ولو تعمقنا في أصول بعضٍ من هذه العوائل فسوف نكتشف أنها تعود إلى أصول قريبةٍ من زمن الشيخ عدي بن مسافر فهي محدثة أيضاً ولا تشكل الأصول الأولى لهذه الطبقة القديمة كقِدم الايزيدية ذاتها. ليس هذا وحسب وإنما تعود إلى أصول إسلامية بحته لتصبح أجساماً غريبة في نسيج الخلية الپيرانية. مثل قضيب البان الذي هو أبو عبد الله الحسين بن عيسى حيث يصل بنسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ونحن نعلم العداء التاريخي بين الايزيدية والإسلام/ الشيعة سيما وأن الايزيديون كانوا متهّمين بقتل الحسن والحسين. فيا لهذه المفارقة الفظيعة...!!

ويقال «أن قضيب البان كان معاصراً للشيخ عدي وكان له صلة به وبالشيخ عبد القادر الكَيلاني في بغداد وتوفي سنة 570 هـ - 1174 م»[16].

«اما أبن الفوطي فيذكر أن قضيب البان هو أبو علي بن محمد الكردي الموصلي الزاهد»[17] .

وأهم فروع هذه الطبقة هي:

1 - پير هسن ممان - هسلمان / Haslmeman :

وهو الرئيس لجموع البيرة ويقع مزاره في منطقة دشت حرير.

2 - پير ممي شفان/ Mame Shivan :

لهذا الپيرشان عظيم في الميثولوجيا الايزيدية ويبدو أن آشڤان/ آشا (الباحث

عن الحقيقة) في الزرادشتية هو نفسه ممي شفان الذي يعتبر إلهاً للغنم ومضحياً لأجل الحقيقة عند الايزيديين.

ويُحكى عن هذا البير /الإله في الإسطورة الإيزيدية رواية طريفة تقول:

«يُحكى في سالف الزمان أنه كان لأحد الأمراء البوطانيين إبنة «تضمر في ذاتها إيماناً عميقاً بـ «طاووس ملك» كبير آلهة الايزيدية. وذات مرةٍ بينما كانت الفتاة الأميرة متجهة نحو الشمس لتأدية فرائض عبادتها كمؤمنةً أيزيدية مهتديةً إلى نور الحق حينها لفت تصرفها الغريب نظر والدها فلم يتوان في توبيخها وذمّها لأنها عصَت دين الإسلام، وهذا ما لا يليق بحرم الإمارة. فأقسم والدها على قتلها إذا لم تبرهنْ له سر إيمانها بالأدلة المقنعة فوافقت الإبنة شرط والدها مقابل إعطائها مهلةً ولو قصيرة.

وما كان عليها إلا أن تسارع بإرسال رسول إلى الايزيديين لنصرتها في محنتها. وفور إنتشار الخبر بين الايزيديين تبرع إثنان من الكواچك لإنقاذها من مأزقها ومصيبتها التي ألّمتْ بها جراء تمسكها بإيمانها الذي ما حاد عن نور «طاووس ملك».

وفي طريقها إلى قصر الإمارة صادف الكوچكان طفلاً يسرح بالغنم فبادر الطفل الراعي إلى مساءلتهم عن طريق وجهتهم واسبابها فصارحاه بالحقيقة. حينها أصرَّ الراعي عليهما كي يصحباه معهما لتلبية صرخة النجدة. مما آثار حفيظة الكوجكين فاستهزأ به بدايةً إلا أنه سرعان ما صعقهما وأذهلهما بكراماته وقدراته المستمدة من المشيئة الإلهية إذ قام بوضع طاقيته على عصاه المفروزة في الأرض فبدأت عصاه بالمشي كراعٍ أمام قطيع أغنامه. كان هذا هو ممي شفان ذاته المتقمص بهيئة راعٍ.

حينها تعرّف الكوچكان عليه وزدادا به ثقةً ثم تابعوا طريقهم إلى قصر الإمارة بثقةٍ أكبر.

وحين وصولهم أبغلوا ابنة الأمير بنبأ وصولهم. ودعاهم الأمير إلى مجلسه فورَ سماعه بخبر وصولهم ففعلوا وافترشوا أرض الديوان لا مبالين بالحشد الكبير للحاشية.

أما الأمير الفاضل فكان قد خبأ تحت سريره سمكةً كان قد اصطادها من نُهير قريب. وبعد إعلان الكواجك عن استعدادهم لمباراة الإمارة سألهم الأمير: تنبؤوا بما تحت السرير إن كنتم دُعاة حقٍ فعلاً ؟؟.

إن أصبتم امتثلتُ لطلبكم وإن أخطأتم فالمقصلة تنتظركم. فوعده «ممي شڤان/ إله الغنم والبحث عن الحقيقة بالجواب ولكن بعد أن يتبصر بما في جعبته من علوم الغيب ففعل. وبعد استيقاظه من غيبوبته رشق الأمير بالجواب قائلاً: أنت فصّلتَ وفرّقت وأنا وثقت وقرّبت. حينها فهم الأمير ما يعنيه «ممي شفان» وهو يجترُّ مرارة الهزيمة وأخرج حوض الماء من تحت سريره وإذا بسمكتين فيه تسبحان بعناية، عوضاً عن سمكةٍ واحدةٍ فيما قبل. وما كان أمام الأمير إلا الإمتثال لشروط الطرف الآخر لأنه وعدهم. حيث جاءت ابنته وطلبت الإستئذان منه بالذهاب إلى بني جلدتها لتشاركهم في السراء والضراء، وتنذر حياتها كلها في خدمة لا لش المقدسة، فأصبحت ربة بيت فيها «كه با نيبال به رما لا شيخادى» حتى يوم مماتها.

ويقال ان مقامها موجود في لالش وهو لا يزال يزار حتى اليوم».

3 - پير آلي/ Ali :

قد يكون «آلي» محرفاً من لفظة آري - Ari التي تفيد في الكردية معنى عبدة النار أو المنحدر من العرق الآري. وبهذا يكون لـ بير آلي / آري صلة وثيقة بالنار





طفلة ايزيدية تؤدي طقوس العيد بالدعاء لـ بيري اليا . اريا والاغتسال بناره/ رمزه السرمدي الأقدس

وطقوسها وبالتالي بالشعوب التي ترى في النار قدسية خاصة باعتبارها مجسداً حقيقاً للروح الإلهية الخالصة.

وما دفعنا لأخذ مثل هذا الرأي هو وجود عيد خاص ينسب إلى هذا البير يسمى بـ «باترمي ـ پيلنده ـ ميلميلاف» لدى الأزيديين. إذ أن عبادة النار وتقديسها يعتبر من أهم طقوس هذا العيد على الإطلاق.

4 ـ پير هاجيالي/ Hagyali :

ويقال أنه أخ لـ پيرآلي وتناولته الميثولوجيا الايزيدية على أنه إله للمجانين وإليه تعود مهمة شفاء الأمراض العصابية وحالات الجنون والهوس.

5 ـ پير بوبي بحزاني BuBe Bahzane :

تعتبر قرية بحزاني المركز الرئيسي لأتباع هذا الپير لذا ارتبط إسمهم بها. ويعد هذا الپير إلهاً لأمراض الفالة /البالوك.

6 ـ پيرجروانة / Gerwana :

تعد قرية عين سفني منطقة السكن الرئيسية لأسرة هذا الپير. هو إله للعقارب في اعتقاد الايزيدية فهو الذي يخفف آلام الملدوغ بلدغة العقرب. ويقال أن اتباع هذا الپير يمسكون بالعقارب ويضعونها في أفواههم دون أن تؤذيهم.

7 ـ پير أيسيبيا/ Esibya :

هو إله لأمراض الجلد. وتوجد له في لالش صخرة منسوبة إليه يحمل القوالون فتاتها معهم ويوزعونها على الايزيديين أثناء جولاتهم برفقة الطواويس. حيث يعتقد أنه بمجرد تمرير فتات تلك الصخرة على المنطقة المصابة بالمرض (الجلدي) فهي كفيلة ، بإزالة آثار المرض.

8 ـ پير آفات ـ بيرا فات / AFAT - FAT :

يُعتقد إن لهذا الپير علاقة بالآفات والأضرار التي تصيب الزرع ومن هناجاءت تسميته بـ «آفات» جمع آفة أي المرض. لذا يعتبر الهاً للفيضانات والطوفانات.

هناك رأي آخر يقول بإنثوية هذا الإله / الإلهة وتسمى بـ «پيرافات» وتقول الميثولجيا الايزيدية إن بيرافات تحمي الايزيديين يوم القيامة بحجابها لئلا يغرقوا . ويأتي ذكرها في بعض الأدعية: (ياسلتان ئيزيد په رد آته ل به رمه بت ـ ياپيرافات جاريكاته به رل مه وه ركريت) وتعني أيا سلطان ايزيد لتكن أنت منقذنا وأنتِ يا پير آفات زمّلينا بحجابكِ.

9 ـ پير حاجي مهمدي ربن/ Hagi Mahmede reben :

يقال أن هذا البير لم يخلف وراءه ذريةً، ويستمدُّ مريدوه مكانتهم من مكانة الشيخ حسن واتباعه لدى الايزيديين، إذ أن أسرة هذا الأخير تعتبر حاجي مهمدي ربن بيراً لها فهو موضع احترامها وتقديرها.

10 ـ پير مهمد رشان Mahme Reshan :

ورد في كتاب «قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبدالقادر » أن محمد بن رشا كان كردي الأصل ويقع مرقده في السفح الشرقي من جبل مقلوب»[18] ويعدّه بعضهم إلهاً للمطر.

وما هو ملفتٌ للنظر هنا هو أنه ليس للأمير أي حق في أن يتدخل بشؤون مرقد هذا البير ولا في نذوره ولا خيراته. وفي حال حدوث أي خلاف بين صفوف مريدي هذا البير فيتم حلّه وتسويته على يد البابا شيخ (يه ختيارى مه رگه هي)

11 ـ پير مَندي كَوراني/ Mandi gorani :

عُرف هذا الپير في الميثولوجيا الايزيدية وشاع صيته بقدرته على شفاء المرضى

وضمان العافية والسلامة لهم. ويقال: أنه ذاتَ مرةٍ أُصيبَ أحد أبناء الجاه والسلطة بمرضٍ عُضال وساءت حالته يوماً إثرَ يوم. دون أن يستطع الحكماء تشخيص حالته وإيجاد الدواء اللازم له. حينها أمر الأمير بإحضار هذا الپير على الفور لأنه كان قد سمِعَ عن معجزاته في شفاء المرضى. فحضر الپير لتقصيّ الوضع وأُمِر بمداواة الأمير المريض وإن فشل في انقاذه فالموت سيكون مصيره المحتوم.

إن محاولات الپير في البداية لم تأت بنتيجة مبشرة وذهبت كل جهوده سدىً : فأمر الملك بوأده (دفنه حياً) حينها حربٌ «پيرمند» محاولته الأخيرة بغية شفاء المريض المهزوز الحال بينما كان الخدم منهمكين في أمور الدفن وطقوسها. وفجأة ساد جوٌ من الصمت وبدت سيماء التعجب على وجوه الناس حين استفاق المريض من سباته دون ان تبدو عليه أية علامةٍ للمرض. وسرَّ الملك لهذا النبأ ثمّ أطلقَ على الفور سراح «پير مند» من القبر قبل تنفيذ الحكم وطمره بالتراب.

وبما أن القبر في الكردية تعني «كَور» فإن تسمية «پير مند» بالكَوراني تكون قد اشتُقَتْ منها (كَور) .

12 - پير لَبنا/ Labna :

يعدونه الايزيديون إلهاً للزواج والتمّني، يتم التوسل إليه في عيد خدر الياس وخدر النبي. حيث يقوم الشباب والشابات (العزّاب طبعاً) . بتناول قرص معمول بطريقة خاصة من طحين القمح المحمَّص الخاص بالعيد ويسمى بـ «ئاروِيكي يوخيينى» مع كمية من الملح الزائد كي تُحسِّسَ آكلها برغبة كبيرة لشرب الماء. ويتم عجنها ثم سلقها لتناولها في ليلة العيد، ويتوجه فيها(كل من تناولها) متوسلاً لـ پير لبَنَا لتحقيق أمنيته في الزواج . ومن يشفي غليلها (أو تشفي غليله) بجرعة ماء في المنام سيكون هو نصيبها (ستكون هي نصيبه) مستقبلاً.

13 - پير خانى / Khane :

يُقال أن هذا الپير كان يسكن في «كَه ليبى زيباره تى» لهذا سُمِيَ بـ پير خاني كَه ليبى نسبةً إلى «كَه ليى» أي الوادي . ويذكر السيد الدملوجي أن اصل هـذا البير كان من منطقة ديار بكر وقبره موجودٌ يـزار وقـد نزحـت اسـرته إلى قضـاء الشيخان ويقيمون الآن في قرية عين سفني (19).

14 - پير قضيب البان/ Khadib Alban :

انقرضت اسرة هذا الپير منذ وقتٍ قريب لمحدوديتها. ويوجـد لهـذا الپـير مـزار مقدس يتولى إدارته نائب من أسرة الشيخ شمس/ شمسا يدعـى بـ «جاويشـى شـيخ شه مسا» ويعدوه الايزيديون إلهاً لآلام المغص وبعض الأمراض الداخلية.

15 - پير آخاي/ Akhay :

يرى بعض الايزيديين في هذا الپير إلهاً لعلوم الغيب والتنبؤ المستقبلي. ويوجـد في منطقةٍ «كولكا» بقضاء «سنجار/ شه نكَال نبعٌ مقدس مسمى بإسمـه «كانييائـا خاي ـ نبع آخاي».

16 - پير أومرخاله/ Omer Khala :

17 - پير هاسنا لكا/ Hasalika

18 - پيرترجيمان/ Targiman

19 - پير كمال/ Kamal

20 - پيرانات/ Anat :

ويرى السيد اسماعيل جول بك أن هذا الپير هو من ذرية مريـم العـذراء ومـن الملاحظ أن إسم هذا البير يتطابق مع إسم إحدى آلهات قريش الثلاث العزة والمنـاة والأنات.

21 - بير خوشاڤا/ Khoshava أو خوشابا/ Khoahaba

22 - بير مهمدي بوز/ Mahmede Boz :

23 - بير جيسن/ Gesin

يبدو أن لأصل هذا البير تاريخ بعيد، لهذا لا نرى ذكره في التراث الشعبي المتداول لدى الايزيديين، ويذكر لنا السيد إسماعيل جول بك أنه قد تلقى من وليٌ في المنام أمراً بالذهاب إليه متوسلاً.

24 - بير مندخان / Mandkhan :

قد يكون هذا البير هو نفسه بيرمند الكوراني، حيث يوجد مزار لهذا البير في منطقة وان يسمى مزار مندخان.

25 - بيرآسيان / Asyan:

قد يكون آسيان هو إسم محرف من «آشفان» فيكون ممي شفان ذاته

26 - بير بوال سيدّري / Bawal Sederi

لهذا البير مزار مقدس في قرية سيدرا وتسكن عائلته في قرية عين سفني بقضاء الشيخان.

27 - بير بازيد - ايزي/ Baxid - Ezie :

هناك من يقول أن منطقة بازيد في كردستان الشمالية هي الموطن الأصلي لهذا البير.

28 - بير كَافاني زرزان / Gavane Zarzan :

تأتي الميثولوجيا الايزيدية على ذكره بعدِّه إلهاً للبقر. وأعتقد أن لذلك تأثير هندوسي واضح لو علمنا أن البقرة هي أكثر الرموز الهندوسية قدسيةً.

29 ـ پير آلوبكر Alobekir :

هو إله لإمراض الفم في الميثولوجيا الايزيدية.

هذا وتوجد عوائل اخرى كثيرة لهذه الطبقة يبدو أنهـا انقرضـت الأمـر الـذي أدى إلى تهميشها و ضعف دورها في ميثولوجيا وعلم الصـدر الأيزيديـين مثـل بـير توز/ Toz وپير بيبون / Beibun وپير نَرم/ Narm وپـير كَـرم/ Garm وپـير كفـان روت/ Kevan ROT وپـير رشـي حـيران Rashe Heiran و پـير مجرمافـان/ Magar Mavan , پير داودي خربندة Dawde Kherbende وپير لكّـر/ Lager وپـير غركَـري/ Gargari حيث نستدّل من تسمياتها الكردية المحضة (في غالبيتها) علـى أصالـة هـذه العوائل في التاريخ البعيد للديانة الايزيدية.

أما رواج هذه الطبقة فمحللٌ بين جميع عوائلهـا عـدا أسـرة «پـير هسـلمان» حيث يفرض الشرع زواج أفرادها ضمـن حـدود هـذه العائلـة حصـراً وهنـاك مـن يقول أنه يجوز لأفراد وأسرة هسلمان الزواج من عائلة بير حاجي مهمدي ربن.

5 ـ طبقة الفقراء/Fakhir :

تستخدم لفظة الفقير كإصطلاح ديني عند الايزيديين وتعني الزاهد أو الناسـك أو تارك الدنيا (أحياناً) الذي يهجر ملذاتها ويتوجه لعبـادة الله والسـجود لجلالتـه. وهناك رواية عن أصل هذه الطبقة تقول: «في يومٍ من أيام الخليقة كان كل من دُعا قبـول Duwa Khabul » و «حبيبي نجـار Nagar Habibi » و «جندريسـي خيـاط Gindresi KhayaT» بصحبة بعضهم البعض يجوبون الأصقاع. فباتوا هناك. غير أنهم احتاروا في أمرهم غارقين في صمتٍ قاتل، فكـان لا بـدَّ مـن أنيسٍ ينسيّهم شـقاء الطريق وعناء السفر. فطفق «حبيبي نجار» يحفر في هيكل خشبي محاذٍ له حتى صنـع منه تمثالاً معبراً عن هيئة إنسان. حينها تبعـه «جندريسـي خيـاط » وألبـسَ التمثـالَ

«ثوباً /الخرقة» مُحاكاً من تحت يديه. أما «دُعا قبـول» فسـرَّ لمـا قامـا بـه صديقـاه وهبَّ بدوره يتوسل لربّه فانهال بادعيته واناشيده على ذاك التمثال المكتسي بالخرقة كي يُهدى بالروح، فما لبث وأن تقبّل رجاءه ونُفِخَ فيه الروح وصـار إنسـاناً يحيـا بينهم فُسمي بـ «ته ميمى دێر» Tamimi Der » أي المنحدر من الخشب. ثم أصبح أباً حقيقياً لطبقة الفقراء التي خلفته فيما بعد ».

وتتقاطع احداث هـذه الروايـة مـع روايـة خلـق الله لقـالب آدم الـتي تناولتهـا الأدعية والأقوال الأيزيدية. حيث نسـمع مـن دعـاء الخليقـة / مَـه ولى ئـافمرا ندنـا دونيابى/ ما يلي:

لالش كو دهاته	في حضرة لالش
ل عه ردى شيين وبوو نه باته	عادت إلى الأرض خضرتها
پى .ز ه ينبين جيڤاس كنياته	و از دان بها الكون كله
كوكنيات پى دز ه ينبين	وباكتمال عناصر الكون
چار قيسمه ت تيك هينجينيين	خُلق قالب آدم
ئاخو ئاڤو بايه وناكيره	من التراب والماء والنار والهواء.
قالبى گاده م پيخه مبه ر ژى نيژينين	
شه مى بوو دانه ئه ساسه	دشنوه في يوم سبت
ئيينى كِمره خه لاسه	واتموا خلقه يوم الجمعة
به عدى هه فصه دصالى	وبعد سبعمئة سنة
هه فت سو رهاتنه دوران كاسه	حلقت سبع أرواح لأسرار حوله
به عدى هه فصه دصالى	بعد سبعمئة سنة من الخليقة.
هه فت سور هاتنه هنداڤه	زُمِّل بسبع أرواح
قاليب مابووبي كاڤه	فسُئِلت الروح: لماذا لا تحيينه؟
گَونه روحو تو بوچى ناچييه ناڤه؟	قـالت الـروح: العلـم عنـد عشـاق الـروح
روحو گوت: ل بائاشيڤا وه مه علوومه	(يقصد الروح الإلهية).



فقير هندي يحاول التقرب من الـ «براهما» بالمازوشية (أي الحب في تعذيب الذات)
وهذا هو شأن الفقراء الأيزديين أيضاً الذين يتزهدون لكسب رضى الثالثو الأقدس
(الله ـ طاووس ملك ـ شيخادي).

هه تا بومن تربانبيا نه ين شازو قدوومه	إن لم ينزل علي الوحي بحضرة الدف والشبابة
نيقه كا روحو قالبي ئاده م پيخه مبه ر زورتو خوومه.	فالهوة بيني وبين قالب آدم النبي جد كبيرة.
شازو قدووم هاتين وه حه ديرى	فحضرت الدف والشبابة
نو نوورا موحبة تى هينكوڤته رمه سه رى	ونفخت الروح في قالب آدم ا لنبي
روح هاتو قالبى ئاده م پيخه مبه ر نيورى	بسر النور الإلهي بدءاً من الرأس.«20»

وحسب رواية «ته ميمي وير» يكون الفقراء الحقيقيون هم المنحدرون من سلالته فباتوا خَلَفاً له. وهؤلاء يُسمّون بالفقراء الأزليين. أما الباقون فهم فقراء غير أزليين ويختصون بخدمة معبد لالش النوارني. تتميز طبقة الفقراء عن غيرها من الطبقات الأخرى بارتداء اتباعها للباس «الخرقة Khırkha » كدلالة على زهدهم وتنسكهم.

والخرقة هي عبارة عن قميص داخلي منسوج من الصوف الخالص وبطريقة خاصة، هي أسود اللون إذ يصبغ بماء ورق شجر «الزركوز ـ Zarguz » وهي شجرة شبيهة بشجرة الحور توجد بكثرة في وادي لالش. ويرى الايزديون أن الخرقة هي اساس الآديين «خه رقه جيدوى مالائا دييايه» لأنها موجودة منذ الأزل:

نيمانة چى نيبشانه	عقيدة ونعم الرمز لها
وه ختانه عه ردهه بوونه عه زمانه	حين لم تكن الأرض ولا السماوات
نه دونيايه نه بنيانه	ولا الدنيا بكينونتها

نه مییر براهیمي ئاده مایه	لا الأمير ابراهيم الآدمي «ربمايقصد ابراهيم الخليل»
نه ژخوریستانه	ولا خورستان «يقصد خوزستان»
به ری نوت هه زارسالی	قبل تسعين الف سنة
كانييا سپی قوبله يه	والعين البيضاء هي قبلة
خه رقى شيخادى شهده يه	وخرقة الشيخ أدي تشهد (وربما يكون المقصود هو أن الخرقة كانت شهادة للدين وعنواناً له لأن مطلع الدعاء ينوّه على أن لهذه العقيدة رمز مقدس).

وهناك أدعية أخرى تناولت الخرقة على أنها منبثقة من درة الكون الأولى على اعتبار أن هذه الأخيرة قد تشكلت من سر الله القدير ومن هنا قدسيتها واجبة:

دوره زكليما يادئى يه	الدرّة هي من سر كلمة الله
خه رقه ده ركه فئى ئرى يه	انبثقت الخرقة منها
دايم ميرا سلافه لى يه	وهي محط القدسية أبداً
شيخوبه كركو:	فقال شيخ أبو بكر:
عه زيزى من ر ميرل فى حه رفى ي	الهي.. كنت في حاجةٍ لهذا الحرف /الرمز منذ زمن بعيد.
حه وجه مه	
ح قاس زير ومالى بير بى دبه مه	سأضحي بكثير من المال والذهب
حه مووى ل نوغرا خه رقه ي نه ده رده مه	وأنذره كله لوجه الخرقه.
عه زيزى من ترميرل فى حه رفى كوهديرم	إلهي.. منذ زمنٍ بعيد انتظر هذا الرمز/ البشرى.
ج قاس زير وماعلى بيروبى ديرم	سأضحي بكثير من المال والذهب
حه مووى ل نوغرا خه رقه ى نه ده ر دار سيرم. (21)	وبكل ذلك سأكون له /في سبيله نذيراً.

لهذا أصبحت الخرقة رمزاً من رموز مقدسات الديانة الأيزيدية، ولا بدّ أن تكون قدسية لابسها/ الفقير مستمدةً من قدسيتها/ سيما وأنه الأكثر تزهداً بين الدنافين الايزيديين، ومن يشغل مكانة الفقير يجب أن يكون قادراً على حمل الأعباء والفروض المترتبة على هذه الطبقة.

وجاء وصف الفقير في بعض الأدعية والأقوال الأيزيدية على أنه تارك الدنيا:

نه فسه كه بيره	للنفس كبرياؤها
به حره نه بيبره	هي بحرٌ لا بئر
يه ل سه ردمشي عالمى يه	تتحكّم بمصائر كل العالمين
يه ل بن ده ستى فه فيرا	ومستعبدة لدى الفقراء
يى نه نفساخو كرى ئيخسيره	إذ يعيشون ورغائبهم أسرى
فه فييرا ئيكه جيكير	الفقراء هجروا الدنيا بملذاتها
خور خوشى وله زه تادينى كر	وساروا على دروب الآخرة في دنياهم
ل بى دنيبابى به رب ئاخره تى كر«22»	

وجاء في مكان آخر كيف أن الله قد كللّ هذه الطبقة بالخرقة لأنها الأجدر بتقليدها:

ل بى نه قلاند بووفه فيرا	بعدها وكل (الخرقة) إلى الفقراء
هنجى ى‌ته ركه كرخرابه فيتتى يا ويرا	فهجروا الدنيا لأجلها .
وى خه لات كه ن مفتان وكليلا	كي ينالوا مفاتيح أسرار دينهم
ئه وكليل وئه وفصه نه	مفاتيح الأسرار تلك
ب وه ستى وان جندى ياقه وبنه	مسخرة بأيدي أولئك الجند
هه رينيج فه رزيد حه قيقه تى روثرا	وفرائض الحقيقة الخمس شاهدة معكم في
ئاحره تى بوه را وشه هده نه «32»	يوم الآخرة

على أية حال فإن الخرقة باعتبارها لباساً دينياً مقدساً ودلالة على الزهد والتنسك يعود إلى تاريخ بعيد وكان له حضوره في طقوس معتقداتٍ عديدة لدى شعوب الميسوبوتاميا وإيران والهند. وتعد ظاهرة التزهد من أقدس المقدسات في معتقدات الهندوأديانها بوجه عام، لأنها خير طريق إلى النيرفانا Nirvana . وما على الهندوسي إلا أن يتقشف بحياته معذّباً فيها كي تتحد روحه مع روح العالم الذي هو روح الإله براهما Brahma لينعم بعدها بالسعادة الأبدية في مملكة النيرفانا.

أماالجانتيون (الجينييون) / أتباع مهاويرا ـ مهافيرا Mahavira فيبالغون في تزهدهم إلى درجة جنونية لا يتصورها العقل. فنعمة الحياة عندهم بل قانونها الأقدس هو أن تجوع لتموت.

«والصمت عندهم أشد قدسيةً من الموت نفسه.. الموت الذي لا يكون مقدساً بحق إلا إذا تمَّ عن طريق الجوع الكامل.. وهو غاية التدين والإخلاص لآلهة السماء»(24) .

والطريق المؤدية إلى الخلاص الأبدي في نظر هذه العقيدة هو التوبة التقشفية الأبدية حتى الإنتحار، الذي هو نعمة إلهية خالصة يدخل بها فاعله مملكة الآلهة والنيرفانا من أوسع أبوابها، ويعتبر هذا «أبلغ انتصار تظفر به الروح على ارادة الحياة العمياء، خصوصاً لو تمّ عن طريق الجوع» (25)

كان للمجوس أيضاً فقراءهم وزهادهم المتميزون بارتداء لباسهم الخاص المنسوج من الصوف أيضاً وكان يسمى بـ «كيستنغ KisTing ».

وتركت هذه الظاهرة بصماتها الواضحة في الطقوس الزرادشتية اليومية. حيث يفرض على كلّ زرادشتي ارتداء الخرقة كواجب من الواجبات اليومية تجاه دينه

ويسمى عندهم بـ «سادرو Sadro » ويشد عليه بالزنار المقدس«كَوشتي GoshTi».

والسادرو Sadro هو عبارة عن قميص داخلي منسوج من القطن ومؤلف من تسعة قطع وفي مقدمته هناك جيب مقدس يسمى بـ «كيسي كَيرفه ـ Kise Gerfe » أي جيب الأفعال الخيرة الذي سيصاحب صاحبه بعد موته، وهو رمز للإلـه آهـورا مزدا لئلا يغيب عن بال الزرادشتي فيسعى لعمل الخير على الدوام»[26].

يعتقد البعض بأن الخرقة متحـدّرة مـن الطقـوس الميسـوبوتامية، لأن المتزهدين النصارى كانوا يرتـدون لباسـاً صوفيـاً علـى شـاكلته. وكـان يسـمى هـذا اللبـاس بـ «اسكيم ـ Askim ».

والأسكيم في النصرانية هو رمز لقداسة الزاهد (أنطونيوس).

«ويعلـل أصحـاب هـذا الـرأي دعواهـم بـأن النصرانيـة بعـد أن انقرضـت في سنجار، كان من الطبيعي أن يعتنق الباقون منهم الدين اليزيدي طوعاً أو كرهاً وقد حافظ قسم الرهبان على صفتهم الكهنوتية وأصبحوا فقراء وتحول «الأسكيم الـذي يلبسونه عادة إلى «الخرقة» وليس من كبير فرق بينهما» [27].

وبالرغـم من قِدم هذه الظاهرة بصفتها ظـاهرة كهنوتيـة محضـة حيـث سـبقت ظهور الإسلام وانتشار رسالته قروناً عديدة، فإن ذلـك لم يمنعهـا مـن اسـتمراريتها وانتعاشها ثم تبلورها في مذاهـب وفرق اسلامية باعتبارها ظاهرة دينية جديدة.

ومن تلك المذاهب التي تتخذ من التزهد شعاراً لها المذاهب الباطنية والرافضيـة والقدريـة والصوفيـة والمعتزلـة.. وغيرهـا والصوفيـة في اللسـان الفصيـح (بالعربيـة) مشتقة من الصوف، وهو دلالة على ذلـك اللبـاس المقـدس الـذي كـان يُنسـج مـن الصوف ثم يرتديه الصوفي (الزاهد) تنسكاً.

وبما أن الخرقة كانت ولا تزال تصنع من الصوف «فلا يستبعد كونهـا اللبـاس

الأول أو الستارة الأولى التي تسترت بها (الأب ـ الأم) الأوليـة الـتي انحـدرت منهـا العائلة الأيزيدية (مالا آديان = العائلـة الآديانيـة)، وأغلـب الظـن كـان (آدى) هـو (الأب أو الأم) الأولى لتلك العائلة والذي أُلّه بعد ذلك وصار من أكبر آلهة الأيزدية حيث يرتقي حيناً إلى مرتبة «طاووس ملك» وأحيانـاً إلى مرتبـة «خـودى ــ الله». وربما جاءت هذه الظاهرة «الخرقة» وقُدست فيما بعد عند تخوم انتقال الإنسان من عهد الوحشية إلى البربرية وتدجين الحيوانات ومنها الغنم. وبمـا أن الايزيدية تؤمـن بتناسخ الأرواح فإنه في اعتقادهم قد حلّ روح (آدي) الأول في جسد الشيخ آدى بن مسافر الشامي المولد (والشيخ آدى) الهكاري الأصل»[28]*

وعلى هذا فالخرقة مقدسة حلّ تقديس، ولهـا حرمتهـا لـدى جمـوع الأيزيديـة ويتخذونها قسماً في تقاليدهم المتوارثة. ولا يجوز إهانة لا بسـها لأنهـا تجسـد نوعـاً من الألوهية القادرة على فعل ما تشاء ومنازلة مـن يحـاول انتهـاك حرمتهـا والحـاق الأذية به. وكثيراً ما تتوسل الأيزيدية إلى ثالوثها الأقدس كي تنازل أعدائهـا بضربـة الخرقة «ده ر با خير قه رى واثره بيينه».

حين يرتدي الفقير خرقته يشدها بحزام أحمر اللون أو أسـود أحيانـاً يسـمى بـ «مهاك Mahak » وللمهاك شبه كبـير مـع الزنـار الزرادشـتي / كَوشـتي GoshTi / المؤلف من اثنتين وسبعين قطعة منسوجة مـن الصـوف أي بعـدد فصـول الياسـنا ــ Yasna. ويتم تثبيته بحلقة نحاسية صفراء يُعتقد أنها من صنع القدرة الإلهية وتسمى بـ «حارم ـ Kharim». سابقاً كان الفقـير ملزمـاً بـارتداء الخرقـة كواجـب ديـني بعـد إكتسابه صفة الفقر/ التزهد، ولهذا لم تكـن طبقـة الفقـراء محكومـةً بقـانون الـولادة (ابن الفقير قد لا يكون فقيراً) وكـان بإمكـان أي أيزيـدي أن يصبـح فقـيراً بمجـرد إجتيازه لإمتحان التزهد وكسـبه لألوهيـة الخرقـة. ولكـن مـع مـرور الزمـن ونظـراً

لقدسية الفقير لدى الأيزيدية غدت هذه الطبقة في عداد الدنافين /الروحانيين، حتى باتت طبقة مستقلة وقائمة بذاتها ومحددةً بحكم الولادة.

وما يميز الفقير عن غيره أيضاً هو وضعهُ للكُلك Kulk على رأسه (هناك من يقول أن الكلك لا يقتصر على الفقير وحده وإنما قد يضعه الشيخ أيضاً فللبابا شيخ مثلاً «يختياري مه ركه هـي«كُلكه» الخاص به) والكُلك هو عبارة عن كمة منسوجة من الصوف الخالص.

كما لا يجوز للفقير أن يحلق لحيته ولا حتى نتفها أو التمثيل بها كي تبدو عليه سيماء الهيبة والقداسة حسب اعتقاد الأيزيديين . وهناك من الفقراء وبعض سلالات الشيوخ والبيرة من يطلقون العنان لشعرهم ويجدلونه كالنسوة تماماً، أما حلق الشارب فهو من المحرمات لأنه رمز لهيبة الرجل، ولا تزال الأيزيدية تنظر إلى من يحلق شاربه نظرة استخفاف وازدراء.

إن هذه الظاهرة تذكرنا بعادات طائفة السيخ Siekh الهندية وطقوسها[29] فالسيخ معروفون كالايزيدية بلحاهم الطويلة وشعرهم المجدول والمستور بكمة، وشواربهم العريضة التي تعطي لصاحبها هيبةً ووقاراً. وللشعر في تراثهم الديني قدسية خاصة حتى أصبحت ظاهرة يتوارثها جيل عن جيل.

ويأخذ هذا الطقس أبعاداً ميثولوجية أخرى في التراث الأيزيدي حتى باتت لظاهرة تقديس الشعر ظاهرة لها شأنها في المعتقدات الأيزيدية. وما «البسك Bisk» إلا بعداً من ابعاد هذه الظاهرة المقدسة. ويعتقد الأيزيديون أن القَصّة الأولى للشعر يجب أن تتم على أيدي «شيخ البسك» الخاص بالعائلة وإذا نَوَتْ عائلة ما على تبريك أطفالها بالبسك فعليها أن تستعد لمراسيم هذا الطقس كتقديم الضحية وما شابه ذلك، ثم تستدعي شيخها كي يكون قائماً على رأس هذاالطقس. فيبارك

الطفل بقَصّته بعد دعاء خاص يسمى بـ «دعاء البسك» هذا نصه:

بسكا بسكانة	خصلة الخصلات
بسكا شيخالى شه مسانه	خصلة آل الشيخ شمس
كاف بلند بوو جوو ئه زمانه	التي بها حلق الكهف في السموات
ب شه هده يا شيخادى وميرانه	بشهادة الشيخ عدي/ آدي والأولياء
وى ل ناقد اشيخى شيخانه	وشيخ المشايخ من ضمنهم
ئينانه خوار له يلون لـه يلـه ت ل قـه در	قُدست ليلة القدر في سورة الرحمن (لاحظ
سوره ت ل ره حمانه	التأثير الإسلامي)
شيخ سه عيد بى دده ت نيشيانه	وقدسها الشيخ سعيد رمزاً
شيخو به كر سه رمه كانه	الشيخ أبو بكر هو سيد المكان
يا شيخادى ومه له ك شيخ س	أياشيخ آدي وشيخ سن إني اتوسل إليكم
	منّا الرجاء ومنكم الدعاء
رمه ده ست وثرته دوعانه	أن تجعل من الخصلة الواحدة أربعين
تو رقى بسكى بكه ى جل بسكانه	وفتوى البسك هي تقديم كبشٍ أو ثور
فيتوو بوقى بسكى كَايه ئان يه رانه (30)	قرباناً لها.

وللخرقة علاقتها المباشرة مع قصة الخلق في الأيزيدية وتناولها مصحف رش كما يلي:

«ووضعهم في جيوب الخرقة وطلع من الدرة ومعه الملائكة فصاح على الدرة صيحةً عظيمة فا نفصلت وصارت أربع قطع من بطنها خرج الماء وصار بحراً» (مصحف رش ـ السفر العاشر ونقلناها حرفياً كما جاء في ترجمتها العربية دون تصرف).

ومن الطقوس الأخرى الخاصة بالخرقة أنهُ ليس من الجائز رميها بصورة لا مبالية لأنها مقدسة كما قلنا وغالباً، كانت توضع في حجرة خاصة بها تدعى

«خاناخه رقه» أي خانة الخرقة وهي موجودة في لالش. إلا أنه من الممكن وضعها في مكان غير مأهول وبعيدٍ عن الأنظار.

يتطوف الأيزيديون أحياناً على الخرقة خصوصاً أيام الأعياد والمناسبات ويسمى هذا الطقس بـ «طه وافا خه رقه/ خه رقه طه وافيوون» أي التطوف بالخرقة.

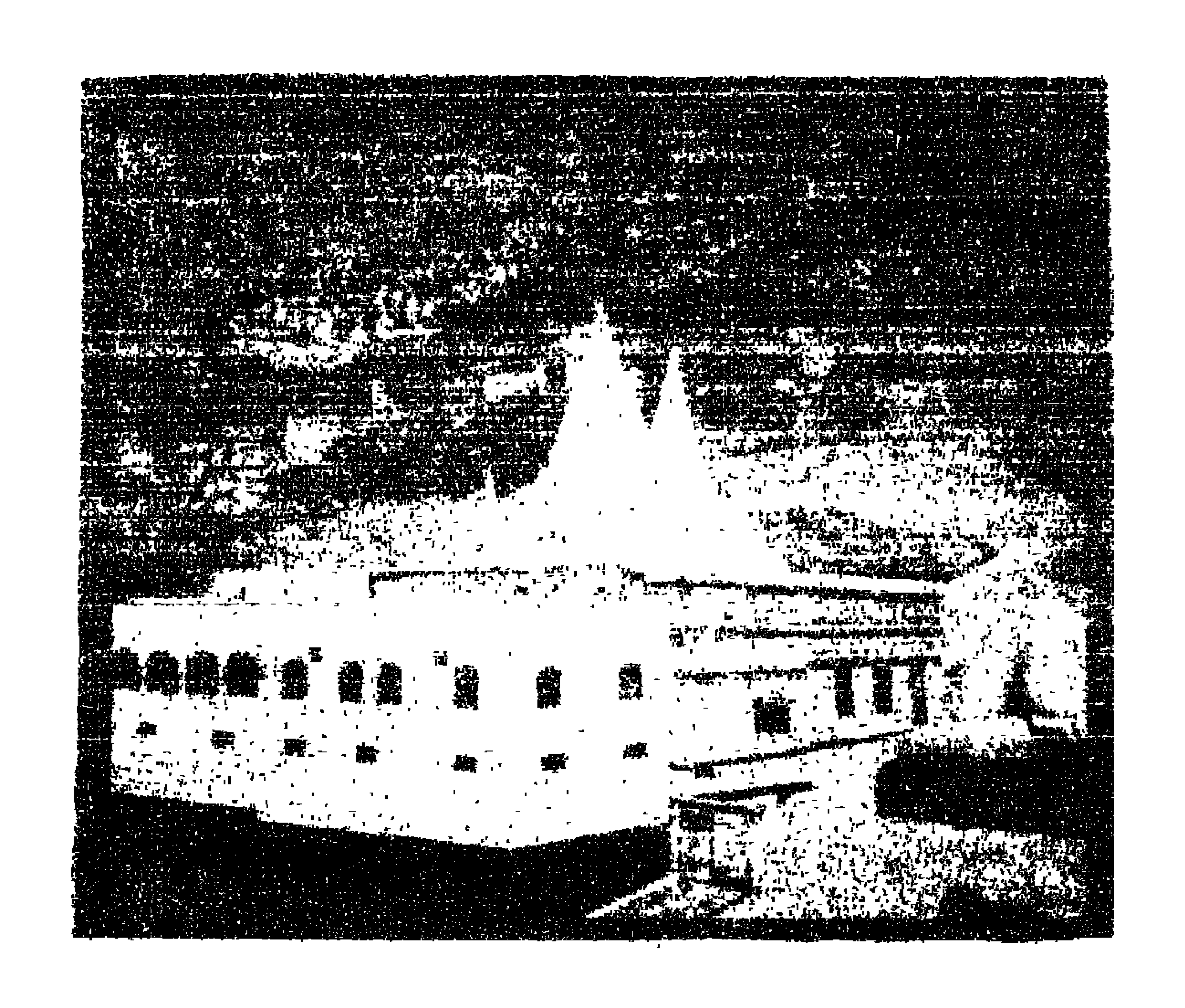
وكل مكانٍ توضع فيه الخرقة يعد مقدساً، لهذا يعتبر جسد الفقير طاهراً مقدساً لا يجوز المساس به إلا من قبل أبناء طبقته.

أما امتحان التزهد /الفقر، فكان في السابق عبارة عن صوم أربعين يوماً في عزلةٍ تامة شرط أن يقضيها باللباس الأبيض الكامل (رمز الطهارة، واللون الأبيض هو لون مقدس لدى الأيزيدية لذا يقولون: ئه م ئيزيدينيه جه ك سبيينه جينه تيينه ـــ وتعني نحن أيزيديون، بيضٌ هي ملابسنا، مقامنا هو الجنة) وأن يحوّط رقبته بجديلة منسوجة من الصوف الأحمر تسمى بـ «مفتول MafTul».

فإن أتمّ هذا الإمتحان بنجاح أهله الأمير ليكون فقيراً ولكن بعد أن تصطبغ خرقته بماء ورق شجر الزركور Zargur وتطهر في ماء «كانياسبي ـ العين البيضاء» المقدس.

ساتوقف قليلاً على خلفية «المفتول ـ MafTul » والطوق ـ توكا ايزيد Toka Ezied ـ الميثولوجية لأن الطوق كان ولا يزال رمزاً من الرموز المقدسة لدى أتباع هذه الديانة.

يعد الطوق (توكائيزي ـ Toka Ezie و بيسير Peser) من العلامات المميزة في لباس الأيزيديين. ومن واجب الأيزيدي نحو عقيدته أن يرتدي تحت ملابسه قميصاً داخلياً (بينكراس ـ Binkras) محوّباً على شكل مستدير من ناحية الرقبة. وتلك



لالش Lalesh مقام الشيخ عدي بن مسافر والتي اتخذها الأيزيديون قبلةً لهم يحجّون إليها باعتبارها فريضة من فرائض ديانتهم.

الدائرة المحوّبه التي تحيط بالرقبة بدلاً من الياقة تسمى بـ (بيسير/ تـوك) وهـي تدعـى أيضا بـ «كَيريفانا راستيبي Girevana rasTye » وتعـني طـوق الحقيقـة. إذ تُرمـز في التراث الأيزيدي إلى الحقيقة لتذكر صاحبها (الأيزيدي) بـالحق وتحثه عليـه وتجنّبـه من الرياء والنفاق.

ولقدسية هذا الطوق لدى الأيزيدية نراهم يقسمون به ويتخذونه رمـزاً يعـرّف الأيزيدي من خلاله:

«ئيزيدى دقيت ب بيسير به» أي على الأيزيدي أن يكون ذا طـوق. «بيسـير نييشانه ك رنييشانيد نيزدايه تيبى يه» وتعني أن الطوق هو رمز من رموز الأيزيدية.

وكثيراً مـا نـرى الأيزيـدي يقبـل طوقـه (كريفانـه)حـال مشـاهدته للقمـر أو للشمس إبـان شـروقها أو غروبهـا.ومنـذ فـترة ليسـت ببعيـدة، حينمـا كـان يحـاط الايزيدي بدائرة من قبل شخص آخر، كان يحتار في أمره ويصبح أسيراً فيها إلى أن تمحى (الدائرة)..

ويعيد بعض الأيزيديين هذه الظاهرة إلى الشيخ عدي بن مسافر الذي كان من عادته أن لا يخرج إلا ومعه عكازته، إذ كان يخطط بها دائرةً كلما اجتمعَ بأتباعـه، وكان يدعوهم بالجلوس فيهـا ليرشـدهم وينوّرهـم بأفكـاره، لـذا ظهـر رأي يقـول بوجود علاقة بين تلك الدائرةوالكريفان.

إلا إنني اعتقد أن لهذه الظاهرة تاريخ أبعد كالخرقة تماماً لا سيما لـو علمنـا أن وجه الشبه كبير بين عادات اللبس لدى الأيزيدية والهندوس والمجوس والزرادشتيين.

وفي أساطير مصر القديمة نسمع اسطورة عن الخلق إذ تقول:

«إن الخليقة في البدء كانت عبارة عن محيط أزلي مظلم... هو تـوق ـ Tok» الذي انبثق منه إله الشمس «رع ـ Ra »[31]

أما الأيزيديون فيقولون بإسـطورة يعيـدون فيهـا الطـوق إلى الشـيخ عـدي إلا أننانرى أنه ربما يكون الشيخ عدي قد اكتسب صفة البطل في هذه الروايـة بعـد أن غالت الأيزيدية في وصفه وصبغته بصبغـةً إلهية. تقـول الروايـة: بعـد تزهـد الشـيخ عدي/ آدي وقضائه أربعين يوماً وهو صائم اهتدى بالنور الإلهـي الـذي نـزل عليـه بصورة قرص مستدير محتضناً روحه. وما الطوق بنظر البعض إلا رمزاً لقدسية تلـك النور.

فهل من علاقةٍ بين هذا الطوق المرموز به إلى النور الإلهـي و«تـوق» المصريـين القدماء الذي انبثق منه إله الشمس «رع...؟؟

إن لطوق الفقير/ الكاك Kak الذي هو أكثر تزهداً أو تنسـكاً مـن غـيره مـن أبناء طبقته ميزةٌ تجعله يختلف عن الطوق العادي /بيسير إذ تُعلّـق بهـا جعبـة صغـيرة تسمى بـ «كشكول Kashkul » وهو أشبه بصحنٍ من الخشـب. وربمـا يكـون لهـذا الكشكول وظيفة تماثل وظيفة «كيسى كَيرفه Kise Gerfe » المتوضـع في السـادرو/ الخرقة الزرادشتيه المنوّه بها سابقاً.

والكاك لغةً «في الكردية» يعني الأخ وإصطلاحاً يعني الواعظ الزاهد.

وظاهرة الفقر/ التزهد، في الأيزيدية لم تنحصر في الرجال فحسب وإنمـا هنـاك بين النسوة الأيزيديات مثيلات للرجال من الفقراء، إذ أخذن التزهد درباً ومبدأً لهنّ في الحياة. وسخرّن حياتهن في خدمة لالش النورانـي، وهـنّ عـذارى أو أرامـل. إذ تعود إليهن أعمال المطبخ وحرق البخور والغسيل وجمع الحَطـب وإشـعال النـار... الخ.

وتعد هاته النسوة انفسهن تاركات لحياة الدنيا وملذاتهـا للتقـرب مـن الـروح الإلهية المقدسة لذا يعشن في عزلةٍ شبه تامة.

وتعتبر «كه بانيال به مالا شيخادى ـ أي خادمة دار الشيخ عدي) التي عالجنا روايتها قديسةً لهن.

وتختص الـ «كه بانية» بشكل خاص في صنع البراة» أما الفقراء الرجال القائمون في لالش فيختصون بحمل أنوار السيرج التي تُنار في المعبد»[32] إضافة إلى قيامهم بأعمال الخدمة الأخرى.

إن لظاهرة الرهبنة النسوية لمساتها في الفكر الهندوسي بشكل عام والبوذي منه على وجه الخصوص. فحين جاء بوذا ونادى بأفكاره الداعية للقضاء على الطبقات والطوائف الدينية لتصبح البوذية عقيدة عالمية لا تفرق بين الهندوسي (كانتماء قومي) وغيره، حينها حطمّ الفوارق بين الرجل والمرأة، فأصبحت حقوق المرأة البوذية في الدين مساويةً لحقوق الرجل. وكما تنسّك الرجل زهدت المرأة أيضاً وصار هناك نساء راهبات مقابل الرهبان. وكانت زوجة بوذا (يوسودهارا ــ Yosodhara) أول راهبة آمنت بالتزهد لبلوغ النيرفانا.

6 ـ طبقة المريدين/Miried

ليس لهذه الطبقة أية مكانة روحية تذكر. ويتماثل دورها مع طبقة الشودرا Shodra في الهندوسية. إذ تتشكل من عامة الناس. وعلى المريدين الإمتثال لطاعة دنافيهم كواجب ديني لأن سلطتهم وهيبتهم مستمدة من أرواح الآلهة التي يمثلونها ويتقمصونها، وتتطابق وظيفتهم مع المعنى اللغوي لتسميتهم التي تعني الأتباع.

وكما أن لكل شيخ أو بيرمريديه، كذلك يجب أن يكون لكل مريد شيخاً وبيراً، وإلا كان في عداد الكافرين بنظر الايزيديين. وذلك فريضة من الفرائض الواجب على الايزيدي الأخذ بها، «شيخ وبيرهوستاومه ره بي بارويتر ناخرة تي

ئه و ن هه ربينج فه رزيد حه فيبفه تى» وتعنى الشيخ والبير الخبير المربي الخلان، وأخ الآخرة، تلك هي فرائض الحقيقة الخمس.

كما أن للشيخ أو البير الحق أحياناً في اختيار مريديه واستبدالهم بآخرين امالمريد فلا يحق له استبدال شيخه او بيره لانه التابع على اية حال وماعليه إلا أن يتبع المتبوع دون سخطٍ أو تذمر لئلا يفقد رضى دناقيه وعطفهم.

إن ظاهرة التبعية المطلقة تلك (السيد علاقة العبيد). وعلاقة السيد بعبده هي من مظاهر المجتمع العبودي الذي كانت تسود فيه العلاقات الآبوية ـ البطريركية «التي من صفاتها ليس تعدد الزوجات فحسب، بل تنظيم عدد معين من الأشخاص الأحرار وغير الأحرار في عائلة تخضع للسلطة الأبوية لرئيس العائلة (روحها) (الخودان) والصفتان المميزتان لهذه العائلة هما ضم العبيد (المريد) إليها والسلطة الأبوية (خودان)»[33].

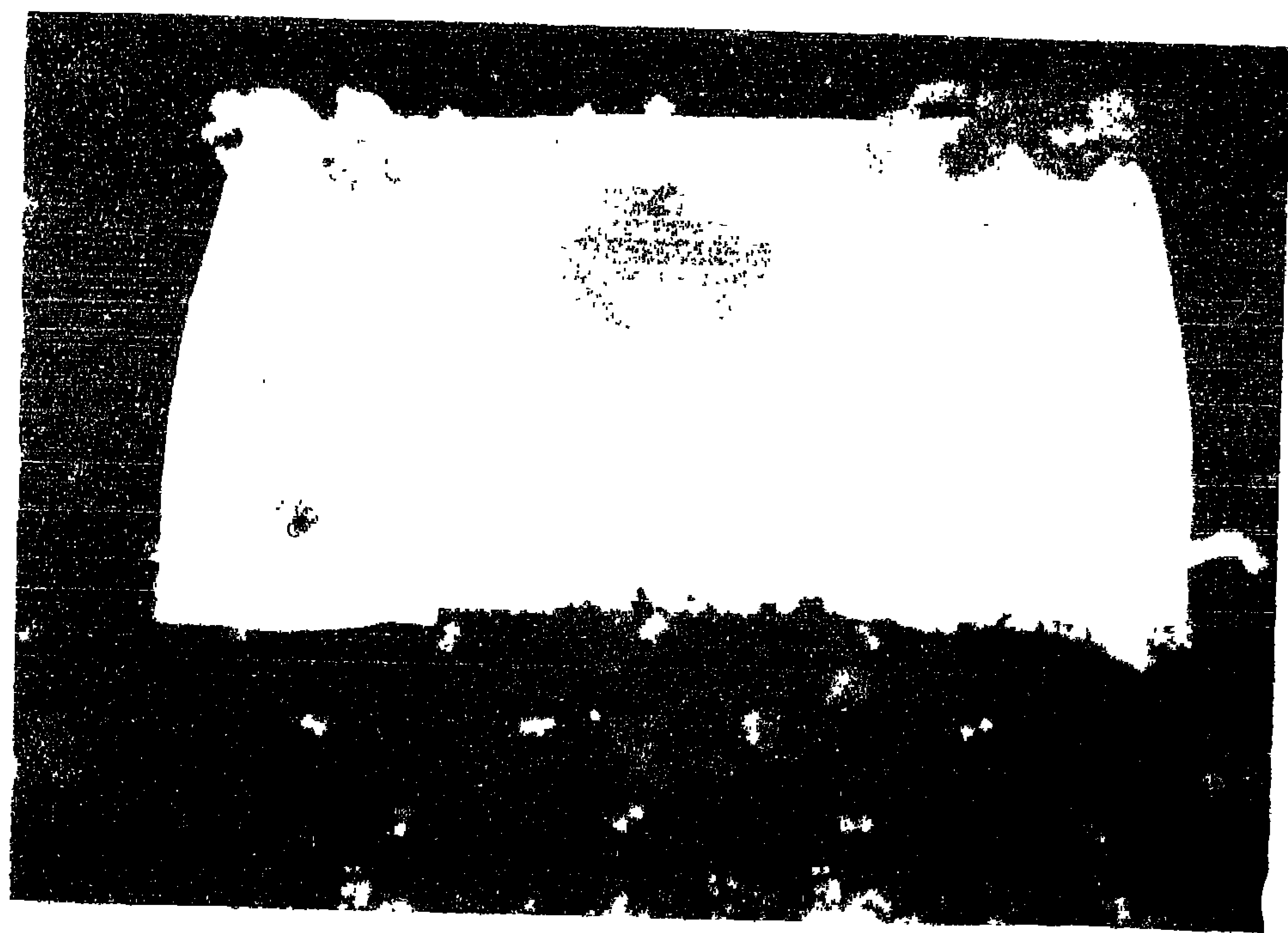
ومن هنا جاءت بعض الوصايا في التراث الأيزيدي لتحثّ على ضرورة رضوخ الأيزيدي لطاعة دناقيه وألا يتعرض إليهم بالسوء بأي شكل كان «هه كَه مالا ئاديا ببينه ئاف هوون نه دنه ناف» أي لو تحولت العائلة الآديانية (عائلة الدناقين) إلى ماء فلا تدسها.

كما تفرض العقيدة الأيزيدية على أن يكون المريد في صلةٍ وثيقة مع دناقيه وأن يستشيرهم في تفاصيل الأمور الدينية وحتى في بعض جوانب الحياة الإجتماعية. إذ يقولون:

«بى شيخ وبير نه جنه دييوانا ميير» وتعني دون صحبة الشيخ والبير لا تذهبوا إلى بلاط الأمير، أما زواج هذه الطبقة فهو محصور في ذاتها فقط دون سائر الطبقات الأخرى.



جعبة البراة المقدسة
(قه ولكى به راتا)



محتويات الجعبة: البراة/ به رات و كفري إيسيبيا/ كه قرى نيسيبيا داركي نَزَري/ داركى نه زه رى و البسك و حفنات من تربة مقام الشيخ شمس والشيخ فخر الدين والشيخ سن و آمادين و ناسردين وآخرون كثيرون بالإضافة إلى محتويات أخرى.

٧ ـ طبقة القوالين / Khawal:

الـ «قول» كما هو واضح هي كلمة عربية وفي التراث الأيزيدي يعني الدعاء الديني/ الترتيلة. والقوالون هم مرتلو تلك الأدعية والأناشيد الدينية. وهم يمثلون ذاكرة الأيزيديين في الموروث الديني.

تنحدر هذه الطبقة في اصولها من تلك الفئة التي قدِمت مع الشيخ عدي بن مسافر اثناء رحيله من الشام (بيت الغار) إلى جبال الهكارية. ومنذ ذلك الحين حُصر فيهم مهمة حفظ الأدعية والتراتيل والتواشيح التي كان ينقلها لهم الشيخ عدي. وتتناول تلك الأدعية /الأقوال مدح وثناء الشيخ عدي وصحابته كالشيخ حسن والشيخ مند.. الخ.

ولأن هذه الطبقة تشكل وعاء الأمة الروحي فعليها التنقل بين القرى الأيزيدية بمصاحبة السنجق/ الطاووس بعد ضمانها من بيت الإمارة لقاء مبلغ من المال . وهم يجمعون بدورهم الصدقات والأموال من الأيزيديين أثناء تطوافهم حول الطاووس والتبرك به.

كما أن من مهامهم توزيع البراة ورموز المقدسات الأخرى المار ذكرها على المتطوفين لقاء صدقاتهم. وللقوالين لهجة خاصة بهم (الكردية المهجنة بالعربية) لدرجة أنه كان من الصعوبة على الأيزيديين في مناطق الأطراف كسوريا وتركيا وأرمينيا فهم هذه اللهجة.

وهناك الكثير من الأقوال التي لا تزال حية في التراث الأيزيدي وهي منظومة بتلك اللهجة وهذه بعض الأمثلة:

نامين نامين	آمين آمين
ئه باركه ل دبين	تبارك الدين
ئه للا ئه حسه ن ل خاليقين	الله هو أحسن الخالقين
ب هيمه تاديين	بهمة الدين
فه خره دين، ناسردين	فخر الدين ، ناصر الدين
سيجادين، بابا دين	سجادين، بابا دين
شيشيمسر قه وتا دبين	الشيخ شمس قوة الدين
سولتان شيخادى تاج ل ئه وه لين	السلطان شيخ آدي تاج الأولين
هه تا ل ناخه رين	حتى الآخرة.
	(34)

وجاء في دعاء الفجر:

ياره جول ل صه باح صه باح ل جه ديد	يا رجل الصباح صباح الجديد
يا مه له ك ل شه هيد	
يا نه خس سولتان ئيزيد	يا ملك الشهيد
	يا نفس السلطان ايزيد
أحد لحه د مايريد	أحد لأحد ما يريد (يقصد بظاهرة الزواج الداخلي)
أنته ل شيخ وأنه ل مريد	أنت الشيخ وأنا المريد
فه قيرل عالي ئه ميرل وه حداني	فقير العالي فقير الوحداني
يا ربى ئه قبه ل دوعانا بى دوعائل موئمنين	يا رب تقبّل دُعانا بدعاء المؤمنين
	(35)

إن أمثال هذه الأدعية والأقوال وغيرها الكثير تثبت بجلاء مدى تأثر التراث

الأيزيدي بالمؤثرات الإسلامية التي حقن بها في المرحلة الثانية من تطور هذه الديانة والتي ابتدأت بمجيء الشيخ عدي بن مسافر. بالرغم من أن لطبقة القوالين استقلاليتها وخصوصيتها وكان من المفروض ألا يتم زواجهم من الطبقات الأخرى. «رغم ذلك فإن البابا شيخ (يه ختيارى مه ركه هى) قد أصدر في الآونة الأخيرة فتوى تسمح بزواجهم من طبقة المريدين لئلا ينقرضوا (36) في حال عدم وجود روابط سابقة تربط العائلة المعنية بأصول الشيوخ أو البيرة لأنه من الجائز أن يكون القوال شيخاً أو بيراً.

تترتب على هذه الطبقة إضافة إلى مهمتهم الأساسية «ترتيل الأدعية» - وللقوالين أن يدوروا حول القبور بالدفوف والترتيل بلغة كردية ولهم أن يأخذوا دراهماً عوض ذلك ـــ (مصحف رش ـ السفر 71)مهمة خدمة لالش النوراني والمحافظة على نظافته سيما وأن لهذه الطبقة ثقل كبير في مناطق المركز «أقصد مركز الأيزيديين الكائن في الشيخان وسنجار) وهم موجودون بكثرة في قريتي بعشيقا وبحزاني التابعتين لقضاء الشيخان.

8 - طبقة الكواجك/ Koshak :

الكوجك / Koshak في المفهوم الديني لدى الأيزيدية هو العارف والمتبصر بعلوم الغيب والماورائيات لهذا يسمى بـ «خيلمه تكارى غه يبى» أي المختص في أمور الغيب والتنبوء بها.

ومن الواضح أن لفظة الـ «كوجك» كإصطلاح ديني في الأيزيدية تقترب تماماً من معناها اللغوي في الكردية التي تأتي بنفس المعنى.

وتتشابه هذه الطبقة في طقوسها مع طبقة الفقراء إلى حدٍ ما. إذ يتميز الكوجك بزهده المبالغ فيه وتقشفه المفرط وهو يلبس عادةً على رأسه عمامةً

بيضاء إضافةً إلى اللباس الأبيض الفضفاض والنطـاق الأسـود (يجـوز الأحمـر أيضـاً) المعروف بحلقاته المقدسة كالعقد التي تعقـد في الزنـار الزرادتشـي/ GoshTi (اثنتـين في الأمـام وأثنتـين في الخلـف) تذكـر الزرادشـتي بواجباتـه اليوميـة تجـاه آهورامزدا والأميشاسبنتا Amesha SpenTas .

وتدّعي هذه الطبقة معرفتها بأسرار الغيب وما يخبئه المستقبل في حيوبه «وإن أرادَ الكوجك أن يتنبأ بما هو آتٍ سيلتحف بعباءة (أو لحاف لم ينم فيه أحد) ثم يضطجع (ويدمدم كالمهووس حتى يستفيق) فيروي للحاضرين ما تراءى له(كما فعل ممي شفان Mame Shvan تماماً). ويقول إني أعرف كل ما حدث في العصور الخالية وفي أيام آدم وحواء».(37).

ولهذه الطبقة قدسيتها الخاصة كالفقراء ــ لدى الأيزيديين وجاء ذكرها في مصحف رش:

«أما بنات الكواجك فليس للعلمانيين حق أخذهم (أي زواجهم) إلاّ كل واحد يأخذ (يتزوج) من جنسه» وجاء أيضاً «وفي شهر نيسان محرم الزواج لأنه رأس السنة سوى الكواجك مأذونون لهم ذلك» (38)

بإمكان أي أيزيدي أن يصبح كوجكاً إن أراد. إذا قبل الفروض المترتبة على هذه الطبقة كطبقة الفقراء. فيصوم أربعينيتي الصيف والشتاء ثم يزور لالش مرتين شرط أن يتطوف حول الأربعين سراجاً المقدسة ويتبرك بالدخول إلى منبر الأربعين شيخاً. بعدها يتوجه المرشح للكوجكية إلى البابا شيخ فيدخله في صومعة الكواجك. والبابا شيخ هو المسؤول الأول والأخير عن شؤون هذه الطبقة وإدارة أعمالها. ويجتمع الكواجك عنده (هذا سابقاً) حوالي عشرة مراتٍ في السنة أي بعدد الأعياد العشرة الرئيسية المعروفة لدى الأيزيدية. وقد حرمت

العقيدة الأيزيدية زواج هذه الطبقة لتزداد تزهداً (هـذا في حـال كـان الكوجـك أعزباً قبل أن يحظى بصفة الكوجكية). وللكواجك اجتماعات استثنائية أيضاً مع البابا شيخ خصوصاً إذا ما أصابتهم مشكلة ما أو تعرضـوا لمكـروه. أمـا طقـوس إجتماعاتهم فهي العزلة التامة عـن العـالم الخـارجي إذ يدخلـون حجـرة معزولـة واضعين رؤوسهم على الأرض كـي يتوحـدوا بملكـوت السـماء ويكشـفوا عـن أسرار الكون.

ولهذه الطقوس وجه شبه مع صلاة الأيزيدية وخصوصاً الزهاد منهم. حيث يذهبـون إبـان شـروق الشـمس أو غروبهـا إلى مكـان معـزول لتأديـة صلواتهـم وتوسلاتهم وهم متجهون إلى الشمس وواقفين على رجلٍ واحـدة. والكواجـك مختصون في تفسير الأحلام وتأويلها. لذا يكثرون الحديث عن أحلامهم ويجعلـون الواقع حلمـاً والحلـم واقعـاً وتنعـدم لديهـم حينهـا المسـافة الفاصلـة بـين الوعـي واللاوعي بين الأنا والـ هو بين الذات/ الإنسان والذات / الإله.

بقي أن نقول في نهاية هذا البحث أن المجتمع الأيزيدي هو كأي مجتمع آخر لا بدَّ من سلطةٍ تقوده ووازعٍ ينصـف بـين رعيتـه تجنبـاً للتخلخـل والتهـرّم والإنهيـار وتتجسد هذه السلطة الروحية /الزمنية في مجلس ديني مؤلف من سـتة عشـر عضـواً والجدير ذكره أن تشكيل تركيبة هذا المجلس تعود إلى تاريخ قريب جداً مقارنةً مـع تاريخ الأيزيدية (19 /4/ 1968) وهذا هو نص القرار:

«تقـرر تشـكيل المجلـس الروحـاني للطائفـة الأيزيديـة في يـوم الجمعـة الموافـق 19 /1968/4 من الذوات المدوّنة أسماؤهم أدناه على الوجه التالي:

1 ـ الرئيس الروحاني الأعلى للطائفة الأيزيدية (أمير الشيخان) تحسين بكَك رئيساً.

2 ـ الرئيس الروحاني بابا شيخ: شيخ حجي شيخ اسماعيل عضواً.

3 ـ الرئيس الروحاني البيشيمام: شيخ علي شيخ نزير عضواً.

4 ـ الرئيس الروحاني رئيس القوالين: قوال سليمان قوال سفو عضواً.

5 ــ الرئيس الروحاني شيخ الوزير: شيخ عطا الله شيخ ابراهيم عضواً:

6 ــ الرئيس الروحاني متولي الشيخ عادي: فقير شمو فقير مراد عضواً.

7 ـ الروحاني النقيب: بيرجوقي بيردرويش عضواً.

8 ـ الروحاني الجاويش: بير كمال بير مرعان عضواً.

9 ـ الروحاني إمام بابا شيخ: شيخ ايزدين شيخ اسماعيل عضواً.

10 ـ الروحاني الكَافان: شيخ درويش شيخ حسو عضواً.

11 ـ الروحاني وكيل البيشيمام: شيخ خليل شيخ عثمان عضواً.

12 ـ الروحاني وكيل شيخ الوزير: شيخ عبدال شيخ خدر عضواً.

13 ــ الروحاني أختيار بخراني: كوجك صادق كوجك جمعة عضواً.

14 ـ الروحاني متولي بعشيقة: حسين سلوكه عضواً.

15 ـ شيخ حسين شيخ ابراهيم سكرتيراً.

16 ـ حسين خضر رشو نائب السكرتير.

لا أودُّ الغوص في تركيبة هذا المجلس وشرح ما هيته لأنه حديث التشكيل أولاً واسقاطٌ مباشر من التركيبة الهرمية لنظام الطبقات الأيزيدي الذي بحثناه ثانياً.

وكل ما يمكــن قولـه هـو أن لهـذا المجلـس شـرعية مطلقـة في إصـدار الفتـاوي والشرائع ومناقشة المسائل الدينية وتعميمها علـى سـائر الأيزيديـين . كمـا لـه حـق الفصل في المشاكل والخلافات الإجتماعيـة لإيجـاد الحلـول الناجعـة لهـا. بلغـة علـم الإجتماع هو البنية الفوقية لتركيبة المجتمع الأيزيدي.

مصادر وهوامش البحث

1 ـ الخرقة لباس خاص ترتديه طبقة الفقراء كدلالة على الزهد والتنسك وهو مصنوع من الصوف الخالص وسنأتي على ذكره ضمن سياق البحث.

2 ـ د. سامي سعيد الأحمد ـ اليزيدية أحوالهم ومعتقداتهم ج2/ ص 141 وما بعدها.

3 ـ سليمان مظهر ـ مصدر سابق/ ص 70.

4 ـ سوف نلاحظ من خلال هذه الدراسة تشابهاً كبيراً بين دور طبقتي البراهمة والشودرا في الهندوسية وطبقة الأمراء والمريدين في الأيزيدية.

5 ـ سليمان مظهر ـ مصدر سابق / ص 263.

6 ـ لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع راجع نوري اسماعيل ـ الديانة الزرادشتية /مزدسينا /ص 70

7 ـ سليمان مظهر ـ مصدر سابق/ ص 11 وما بعدها.

8 ـ المصدر ذاته / ص 117.

9 ـ أخذنا هذا الدعاء من شريط كاسيت مسجل بأدعية الأيزيدية وتلاوة «فقير حجي» أهدانا اياه أحد الفاضلين من أيزيدية سنجار. والنص الوارد هنا هو عبارة عن مجموعة مقاطع من دُعاء الفجر.

10 ـ المصدر ذاته.

11 ـ توجد في كل بيتٍ من بيوت الأيزيدية جعبة مقدسة تسمى بـ جعبة البراة ـ قه وليكى به راتا، تودع فيها بعض رموز المقدسات وعلى رأسها البراة وتعلّق في زاويةٍ بعيدة عن متناول الأيدي من زوايا البيت ومن محتويات هذه الجعبة.

أ ـ البراة: وهي عبارة عن كراتٍ بيضاء أو رمادية صغيرة تُصنَع من تربة المقام المقدس/ لالش المعجونة بماء العين البيضاء/ كانيياسبي. وللبراة قدسية خاصة على الأيزيدي حملها في حله وترحاله. فهي هويته وعنوان عقيدته. وكانت البراة أيام النزاعات والخلافات العشائرية والإقتتال بين الإخوة رسولةً للسلام بين الأطراف المتنازعة.

ومن الطقوس المتبعة بين الأيزيدية في هذا الشأن هو تقبيل البراة والإمتثال لقدسيتها اينما تناولها ، كما لا يجوز للمتزوج أن يتناول البراة من زوجته ويحرم هذا على الزوجة أيضاً. لأن كل من يتعاطون البراة فيما بينهم يصبحون إخوة في نظر ا لشارع الأيزيدي.

ب ـ حفنات من التراب:

وتكون هذه الحفنات عادةً من تربة المقامات المقدسة لأولياء الأيزيدية كالشيخ شمس .

والشيخ مند والشيخ فخر الدين والشيخ سن وشرف الدين وآخرون ويعتقد الايزيديون أن وجود حفنات التراب هذه في الدار تعني وقايتها من الأمراض وشر المصائب.

جـ ـ فتات من صخر إيسيبيا/ كه قري ئيسيبيا: Esibya

وتنسب هذه الصخرة إلى بير إيسيبيا الذي يعد إلهاً لشفاء بعض أمراض الجلد.

د ـ عود الوقاية من ضربة العين/ داركى نه زه ري:

تعتقد الأيزيدية أنَّ وجود هذا العود في أي مكان كفيل بوقايته من ضربة العين. ويُؤخذ هذا العود من الأشجار التي تضربها البروق.

تلك هي بعض محتويات هذه الجعبة المقدسة.

12 ـ د. سامي سعيد الأحمد ـ مصدر سابق ج2 ص 144 وما يتبعها ـ راجع أيضاً الدملوجي ـ اليزيدية /ص 44 .

13 ـ الدملوجي /ص 37.

14 ـ عبد الرزاق الحسني ـ رؤساء اليزيدية الروحانيون ـ العرفان ـ المجلد 33 / ص 1127 وما بعدها.

15 ـ د. خليل جندي ـ بحثه المنشور في مجلة سه رهلدان (نحو معرفة حقيقة الديانة الأيزيدية) العددان 4 ـ 5 /ص 160.

16 ـ د. الأحمد ـ مصدر سابق ج2 / ص 157.

17 ـ تلخيص مجمع الآداب ـ معجم الأسماء في معجم الألقاب ـ ج 4 / ص 306.

راجع أيضا د . مصطفى جواد ـ نقد كتاب اليزيدية لصديق الدملوجي ـ / ص 358.

18 ـ الدملوجي ـ مصدر سابق/ ص 45.

19 ـ المصدر ذاته / ص 46.

20 ـ من دعاء الخليقة «قه ولى نافراندينا دونيايى» بين مجموعة أدعية فقير حجي المار ذكرها.

21 ـ خدرى سليمان ـ كَونديايتى (تقاليد القرية) ـ به غدا 1985 / ص 98 (من قه ولى شيخوبه كر).

22 ـ خدري سليمان وخه ليلى جندي ـ ئيزدياتي. لبه روشنايا هنده ك تيكستيد ئايينى ئيزديان بغداد 1979/ دعاء الدين «قه ولى دينى ايزيديى/ ص 88

23 ـ خدرى سليمان ـ كَوندياتي/ ص 98 (من دعاء الشيخو بكر).

24 ـ سليمان مظهر ـ مصدر سابق/ ص 128.

25 ـ المصدر ذاته /ص 147.

26 ـ راجع مقالنا المنشور في مجلة «لالش» /كردستان العراق ـ العدد 4 تحت عنوان (êzdayeti Û Zerde

Teyeî&

27 ـ الدملوجي ـ مصدر سابق/ ص 50.

28 ـ د. خليل جندي ـ نحو معرفة حقيقة الديانة الأيزيدية ـ الحلقة الأولى ـ آينبيك 1993 / ص 6 ـ 7.

* من المعروف أنَّ التراث الأيزيدي الشفوي يتطرق لذكر شخصيتين باسم «الشيخ عدي / آدي» فالأول هو الشيخ عدي بن مسافر الأموي (المتوفي سنة 1160 م) المنحدر من نسب عائلة مروان بن الحكم وكان يسكن في «بيت فار» من أعمال بعلبك بلبنان ثم هاجر إلى لالش وسكن فيها حتى يوم وفاته. أما الثاني فهو الشيخ عدي بن الشيخ ابي البركات بن صخر بن مسافر (المتوفي حوالي سنة 1217 م) الهكاري الأصل وكان يلقب بعَدّي الكردي حيث ترأس زاوية لالش بعد وفاة والده ابي البركات المعروف لدى الأيزيدية بالشيخ بركات. وتقول بعض المصادر التاريخية أن بدر الدين بن لؤلؤ حاكم الموصل (وهو من الأتابكة) قد قام بشنِّ حملةٍ على الأيزيدية في زاوية لالش وقتل منهم عدداً كبيراً ثم نبش قبر عدي وأخرج عظامه وأحرقها.

لهذا ومنعاً للإلتباس قمنا بتغيير العبارة الأخيرة للدكتور خليل جندي (فإنه في اعتقادهم قد حل روح (آدي) الأول في جسد الشيخ آدي بن مسافر الشامي المولد والهكاري الأصل) لأننا لم نتوصل إلى ما يعنيه بذلك على وجه الضبط. فالعبارة كماهي يفهم منها على أن الشيخ عدي الشامي هو نفسه الشيخ عدي الهكاري ولا أعتقد أن يكون د. خليل مناصراً لهذا الرأي.

29 ـ السيخSiekh : هي عقيدة من عقائد الهند. حيث جاءت رداً على الطقوس الهندوسية والتعاليم الإسلامية، لذا يرى السيخ بأنّ الهندوسية كانت على خطأ كبير وجاء الإسلام ليكرِّس الخطأ في وجهه الآخر. ويعتبر ناناك Nanak و انجاد Angad ثم أرجان Argan المؤسسي الأوائل لهذه العقيدة والسيخ لغة تعني الأتباع أي المريدين وإصطلاحاً تفيده معنى السائرين على خطى نبيهم الأكبر ناناك Nanak. أما كتابهم المقدس فهو عبارة مجموعة من أفكار ومواعظ وأشعار المصلح رامانائد Ramanadالذي بشّر بدعوته المبنيّة على أساس وجود إله واحد في الكون فليس من طريق إلى هذه الحقيقة سوى النيزفانا. بالإضافة إلى أفكار وآراء كبير Kabir الذي اسس عقيدة عُرفت بإسمه.

وتعتبرُ مدينة «امرشار Amrtsar » الهندية المركز الرئيسي لأتباع هذه العقيدة ـ أذ توجد فيها أقدس معابدهم على الإطلاق (المعبد الذهبي في بركة الخلود).

30 ـ من دعاء البسك (وهو من بين مجموعة أدعية فقير حجي المار ذكره).

31 ـ سليمان مظهر ـ مصدر سابق /ص 21.

32 ـ د. سامي سعيد الأحمد ـ أحوالهم .. ج2/ ص 163.

33 ـ د. خليل جندي نحو معرفة حقيقة الديانة الأيزيدية ـ النظام الطبقي ـ ج3 ـ 1994 آينبيك/ ص 70 .

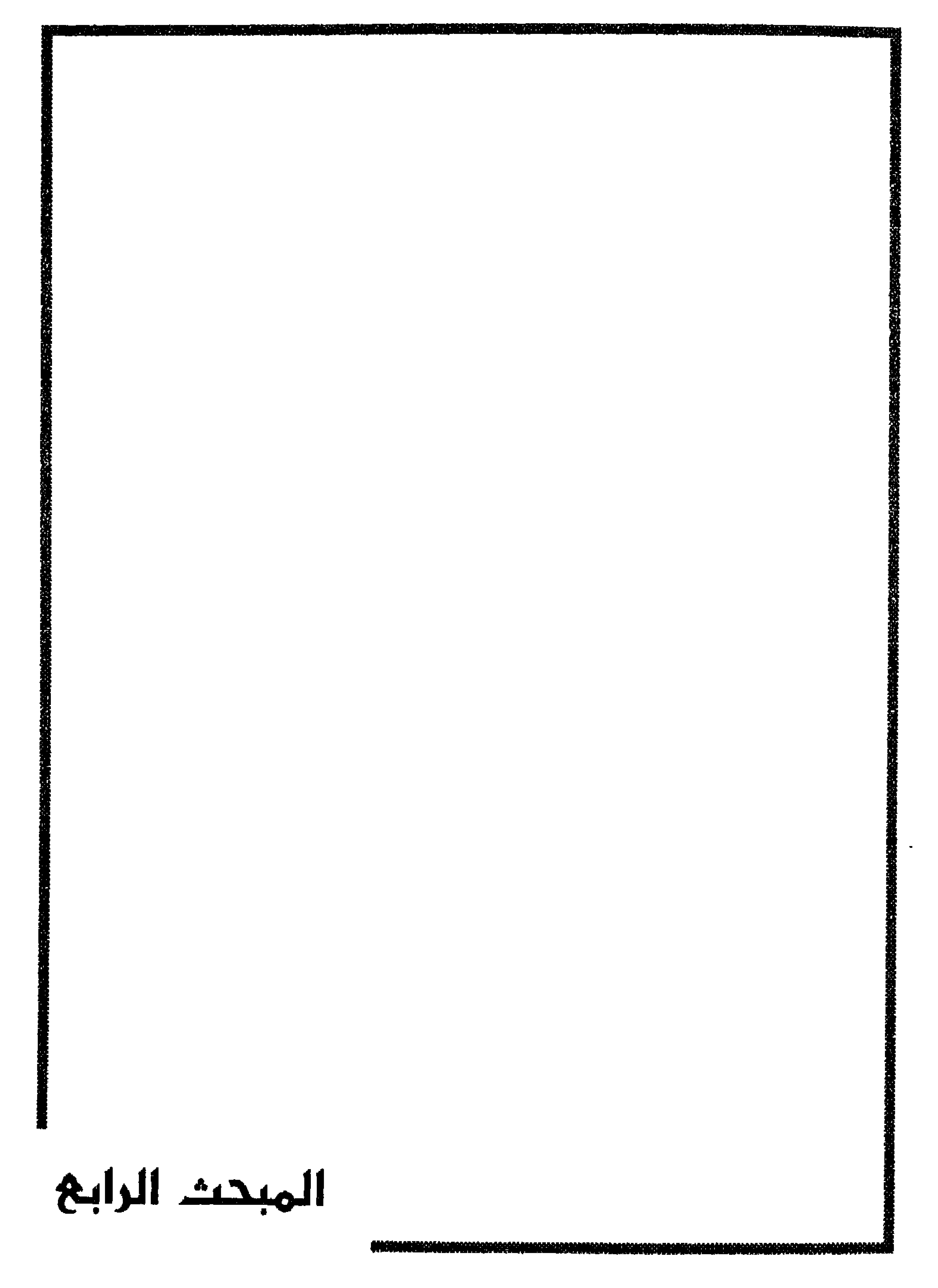
34 ـ دعاء الصبح (وهو من بين مجموعة أدعية فقير حجي المار ذكره).

35 ـ المصدر ذاته.

36 ـ الدملوجي ـ مصدر سابق/ ص 52 ـ راجع أيضاً الأحمد ـ ج2 / ص 165.

37 ـ الأب انستاس ماري الكرملي ـ اليزيدية ـ المشرق ـ المجلد الثاني 1899/ ص 547.

38 ـ مصحف رش ـ السمر 78 و 79. نقلناها بدون تصرف.



المبحث الرابع

الأيزيدية والأسطورة

الأربعاء الأحمر

* توطئة:

إن ما يلفت نظر المرء حين تناوله لدراسة اللاهوت الأيزيدي وسبر خفايا فلسفة هذه الديانة هو غناها بأساطيرها وليجنداتها التي تغوص في عمق أعماق التاريخ، حتى باتت الميثولوجيا زاداً يومياً يقتات عليه الأيزيدي لدى ممارسته لطقوسه الدينية.

وبما أن الدين بالنسبة للأيزيدي هو كيانه ووجوده بل هويته التي تنطق بإسمه، فكان لا بد من أن تصبغ السوسيولجيا الأيزيدية بطابع ديني محضّ فتتلاشى حينها الحدود بين الدين والإسطورة من جهة، وبين الإسطورة / الدين والسيوسيولوجيا، من جهة أخرى.

إن الأساطير هي في النهاية وليدة مخيلة الإنسان وملكاته المبدعة إذ «تهدف إلى تفسير شيء ما في الطبيعة كنشوء الكون أو أصل الرعد أو الزلزال أو العاصفة أو الشجرة أو الوردة. ومن هذا التفسير العلمي الأولي، البدائي للعالم المحيط، دفعت

الإنسان حاجة للسيطرة على بيئته ووجوده إلى إقامة عبادات أساسية، غالباً ما تكون بمساعدة الشامانات والكهنة أو المطببين، وبرضا ذوي التأثير الكبير في حياته أو في محيطه.

تقوم أساطير أخرى بتفسير التقاليد والعادات الإجتماعية و الممارسات الدينية وأسرار الحياة والموت. فالخيال والخرافة والزخرفة اختلطت بالملاحظة اختلاطاً كبيراً. بعض الأساطير وضعت للتعليم، لكن بعضها الآخر لم يكن يهدف إلا للمتعة والتفنن في رواية القصص».[1]

فالإسطورة عالم آخر رسم عليه الإنسان هواجسه وطموحاته التي عجز عن بلوغها بل وحتى البوح بها في عالمه/ واقعه المعاش. لذا خلق لنفسه عالماً كاريزمياً[2] ليتقرب من آلهته واحلامه المختبئة في أزقة ودهاليز اللا شعور.

سنسلط عدسة البحث في هذه الدراسة على احدى أهم الأساطير وأكثرها قدسيةً ورواجاً في التراث الايزيدي وذلك من خلال النقاط التالية:

- اسطورة الأربعاء وسر قدسيتها في الأيزيدية.
- ترى لماذا الأربعاء ذاته دون سواه من أيام الإسبوع الأخرى؟.
- ما هو السر الكامن وراء تقديس هذا اليوم..؟
- الأربعاء ماذا .. يعني؟
- وأخيراً ما هو موقع هذا اليوم في خريطة الميثولوجيا الأيزيدية وكيف تناولته المخيلة إسطورياً عبر التاريخ...؟؟

تلك هي ابرز المحاور التي سنحوك خيوط البحث حولها.

قبل أن نلج في صلب موضوعنا ونخضعه لعملية البحث والاستكشاف أودُّ الإشارة إلى أن للأيزيديين تقويمهم لدى تناولهم لأيام الإسبوع وأشهر السنة

وفصولها. فيحددون بذلك أيام اعيادهم ومناسباتهم الدينية. كما يعتمدون حسابات خاصة بهم في التنبوء بأحوال الفصول وتقلبات الطقس وتفسير بعض الظواهر الفلكية ككسوف الشمس وخسوف القمر وتعاقب الليل والنهار وغيرها... وبهذا يمكننا القول أن لعلم الفلك ـ لو صحت التسمية ـ حضوره بهذا الشكل أو ذاك في التراث الأيزيدي. سيما لو علمنا أن الأيزيدية منبثقة من قلب الميسوبوتاميا حاضنة اعرق الحضارات التي عرفتها البشرية في تاريخها القديم حتى الآن كالبابلية والآشورية والسومرية والأكادية.. الخ.

فالبابليون هم أول من قسموا الإسبوع إلى سبعة أيام وسمّوا كل يوم بإسم كوكب/ نجم من كواكب المجموعة الشمسية وذلك كالتالي:

الأحد/ الشمس والاثنين /القمر والثلاثاء/ المريخ والأربعاء/ عطارد والخميس/ المشتري والجمعة/ الزاهرة والسبت/ زحل.

وكان لهذا التقسيم تأثيره في ثقافات جميع الأقوام والحضارات المتوالية على مر التاريخ، فالميثروية مثلاً جسدت الروح في كل يوم من أيام الإسبوع متأثرة بجيرانها البابليين والسومريين والآشوريين، فأصبح لكل يوم لدى الميثرويين ملاكه/ إلهه المسؤول عن صيرورته الفلكية.

ومن الطبيعي جداً أن نسمع صدى هذا الإعتقاد في الديانة الأيزيدية المصطبغة صبغةً ميسوبوتاميةفي جوانب أخرى من فلسفتها اللاهوتية.

فيرى الأيزيديون كل يوم من أيام الإسبوع ميلاداً لملاك/ إله من الهتهم السبعة المعروفين. جاء في مصحف رش:

«في البداية خلق الله درة البيضة من سره العزيز وخلق طيراً اسمه انغر وجعل الدرة فوق ظهره وسكن عليها أربعين ألف سنة.

أول يوم/ الأحد خلق ملك عزازئيل وهو طاووس ملك رئيس الجميع.

يوم الإثنين/ خلق ملك دردائيل وهو شيخ سن.

يوم الثلاثاء/ خلق ملك اسرافيل وهو شيخ شمس/ شيشمس.

يوم الأربعاء/ خلق ملك ميكائيل وهو شيخ أبو بكر.

يوم الخميس/ خلق ملك عزرائيل وهو سجادين.

يوم الجمعة/ خلق ملك شمنائيل وهو ناصر الدين.

يوم السبت/ خلق نورائيل وهو فخر الدين»(3).

من المسلَّم به أن يوم الأربعاء هو أقدس الأيام وأجلها عند الأيزيدية ولكن ما ورد في مصحف رش يوقعنا في شيء من الحيرة والإرتباك.

فـ «طاووس ملك Taus Malak » هو الملاك / الإله الأكبر بعد الله في الديانة الأيزيدية وهذا ما يؤيده مصحف رش.

وتسليماً بذلك كان من المفروض أن يكون الأربعاء هو يوم ولادة هذا الملاك. ليتساوى طرفا المعادلة: الأربعاء كيوم أقدس ميلاد لطاووس ملك كملاك أقدس.

ولو عدنا إلى علم الصدر الأيزيدي (التراتيل والأدعية الدينية) لإستقرأنا أن قدسية الأربعاء متأتية من كونه خاتمةً للإسبوع إذ أنهى فيه الله خلق آدم الذي به انتهى خلق الكون والخليقة.

خوه داوه ندى مه ئينى كهر ئه ساسه	إلهي وضع الأساس في يوم الجمعة
شه مى يرى كراسه	وفي السبت كساه
جارشه مبه وى كر خه لاسه	وفي الأربعاء انتهى من خلقه . (4)*

إن الأيزيدية بناءٌ قائمٌ بذاته ديناً وإسطورةً، لهذا نتلمس فيها رؤى وعقائد

مختلفة جدّ أختلاف عمًّا ورد في معتقدات الأديان الأخرى.

ومن ذلك تباين الميثولوجيا الأيزيدية عن الخلق والكينونة التي تعدُّ اتباعها نسلاً من لدن آدم وحده بعكس ميثولوجيات الأديان الأخرى التي تعدُّ آدم وحواء أبوين للبشرية جمعاء. (5) ورغم ركاكة اللغة التي كتب بها مصحف رش والتي تعود إلى زمن متأخر جداً من تاريخ هذه الديانة فإننا سنعرض ما جاء فيه بهذا الخصوص:

«وبعدما خلقت حواء وكل الحيوانات، تخاصم آدم وحواء على تناسل الجنس البشري و كل واحد منهما يقول للآخر مني هو التناسل وذلك لما نظروا شركة الذكر والأنثى ما بين الحيوانات وبعد المباحثة بينهما صار الإتفاق على هذا والقى كل واحد شهوته بجرة وسدّ فمها بختمة وصبروا تسعة اشهر وبعد ذلك فتحوها فنظروا وإذا بجرة آدم زوج من الصبيان ذكر وأنثى ومن هؤلاء تناسلت أمتنا. ولما فتحت جرة حواء نظروا فيها دوده معفنة مكروهة الرائحة.

وانبع الله لآدم ثدي وارضع الصبيان الذين خرجوا من جرته ولأجل هذه المادة صار للرجل ثدي ومن بعد هذا عرف آدم حواء فولدت ولدين ذكراً وانثى وهم الذين منهم تناسلوا اليهود والنصارى والإسلام وغير ذلك من الطوائف» (6).

قلت مراراً أن كتابي مصحف رش والجلوة المعروفين على أنهما الكتابين المقدسين لدى الطائفة الأيزيدية يعودان إلى المرحلة الثانية لتاريخ الأيزيدية بعد مجيء الشيخ عدي بن مسافر/ المرحلة ما بعد العدوية والتي ابتدأت في النصف الأول من القرن الثامن عشر الميلادي «*» ومعها دخلت الأيزيدية حركة التطور اللا طبيعي

حيث شهدت شطحات ميثولوجية ومعتقداتية هنا وهناك. لا لشيء فقط إلا لتدخل معركة المصير/ وجود أو لا وجود، معركة الدفاع عن الهوية المهددة بالمحو والتلاشي .

ومن هنا ابتدأت سيناريوهات البدع تفعل فعلها في التراجيديا الأيزيدية.

فعُظِم شأن يزيد بن معاوية ونُسِجت حوله الملاحم والقصص والروايات الخرافية كونه تعاطف مع الأيزيديين فاتحدوا في جبهة واحدة مقابل جبهة الإسلام /الشيعة بعد أن اتُهم بالشرك والزندقة. كما ادّعوا أنهم تناسلوا من آدم وحده لأن الإسلام عدوّا كل البشر متناسلين من أبويهم آدم وحواء. وإلى غير ذلك من البدع والإختلاقات.

* الأربعاء ومظاهر قدسيته في علم الصدر الأيزيدي:

إن تمحور الإنسان حول المقدس والسجود له بهيبة وخشوع لم تأتِ من الفراغ. بل لذلك مبرراته ودوافعه الميثولوجية والتاريخية.

فبين المقدس والإسطورة علاقة حدَّ حميمة يصعب على المرء فصم عراها سيما لو علمنا أن الإسطورة هي الرحم الأخصب لتعشيش كل المقدسات.

إن كل المصلحين والمبشرين والأنبياء الذين قُدسوا على مرّ التاريخ أُحيطوا بهالةٍ من الأساطير والتصورات الميتافزيقية إلى جانب استنادهم إلى أرضية سوسيولوجية خصبة.

وينطبق الواقع عينه على موضوعنا الذي نبحث فيه. وما أنوي تأكيده هو أن سر قدسية بعض الأيام كالأحد في المسيحيّة والسبت في اليهودية والجمعة في الإسلام والأربعاء في الأيزيدية هو الميثولوجيا التي جَبِلت بجبلتها.

فما هي الأسطورة التي يتخذ منها الأربعاء مادة لقدسيته.؟

كُثِرت الأساطير والليجندات التي تمحورت حول هذااليوم وعظمت من شـأنه بعدّه أقدس أيام الإسبوع على الإطلاق. ولا تزال بصماتها مرتسمةً على جدران الذاكرة، سواء في التراث الكردي (بشكل عام) أو التراث الشفاهي الأيزيدي (بشكل خاص).

وهذا وجه آخر من أوجه جدلية العلاقة بين الكردورية والأيزيدية. تلك العلاقة التي باتت حقيقة تاريخية لا غبار عليها. فالكل الكردي هو الوعاء المحتوي للجزء الأيزيدي علماً أن الايزيدية كأول ديانة كردية كانت ولا تزال الحصن المنيع لحفظ القومية الكردية من الضياع والإندثار لأسباب عديدة لا مجال لذكرها هنا.(7)

ففي الأدب الشفاهي الكردي نسمع حكاية طريفة عن قدسية الأربعاء وعظمة شأنه باعتباره يوماً جليلاً يحتفي به الملائكة / الآلهة والجن. مفادُها:

«يُحكى أن عابرا سبيل جابا الأصقاع في رحلةٍ لهما إلى بتليس bEtLIS » وما لبثا أن تاها في الطريق وخيّم عليهما الظلام في منطقة مهجورة تدعى بـ «خانا ئه له مان ـ Khana Elamam » وبوصولهما إلى مشارفها بدأت أصوات غريبة مصحوبة بعزف الدف والشبابة تعلو في صخبٍ جنوني دون أن يدركا حقيقة ما يجري فاحتارا. حينها قرر أحدهما (كان الأكبر سناً ــ العجوز) ركْبَ المخاطرة لتفهّم الأمور وتداركها. فقاسى رحلةً شاقة بين الحلم والواقع، والحقيقة والخيال كاد أن يفقد صوابه إلا أنه أدرك في نهاية المطاف سر ذاك الضجيج الذي كان من دنس الجن والعفاريت. ومع بلوغ العجوز إلى المكان المقصود هدأت الأصوات وبات كل شيء في سكون ملائكي. وبعد هنيهات

عاود الضجيج مرة أخرى وما لبثت الأصوات أن اعتلت في طربٍ هستيري مرددة مقاطع من هذا النشيد:

جارشه مه خوه ش جارشه مه لوجارشه مه	اليوم هو الأربعاء ونعم الأربعاء
مالا بووكي لبه رجه مه لوله ر جه مه	ودار العروس على شط النهر
بووك ب زافيرا بى كه نه لو بى كه نه	تخفي لعشيقها ابتسامة نضرة.
جار شه م رو ثره ك بيروزه لوبيروزه	الأربعاء يوم مقدس
سه رى زاقي كولوزه لوكولوزه	ورأس العريس قدسٌ في رمّته
زاقال بووكى بى دوزه لوبى دوزه	وللعريس طلباته على عروسته.
جار تسه م روزه ك جى خوه شه لوجى خوه شه	الأربعاء يوم سعيد ونعم السعادة
خيلى هاتين بى مه شه لوبى مه شه	تشرّف الخطاب مشياً على الأقدام
ثانيس بووكه ك كه له شه لو كه له شه	ومعهم عروسة خنساء
جارشه روثرا خوه دايه لوخوه دايه	
ده ربى خه مان دادايه لودا دايه	الأربعاء يومٌ إلهي
كيفو خوه شيى تيدايه لوتيدا يه	مؤجج بنار الآلام
	ومنه تشع أنوار السعادة.

أما العجوز المسكين فاحتار في أمره وماكـان عليه إلا أن يشاركهم غبطتهم بفزع وارتباك. وبعد تأدية طقوسهم وتراتيلهم التمَّ الجميع حول ملاكهم الأكبر منتصبين كالأصنام، ثم ساءلهم الملاك عن يوم الأربعاء وسرٍّ قدسيته فشفوا غليله بأجوبتهم. وحين جاء دور العجوز وقُذِف بأسئلتهم:

ـ في أيّ يوم من الإسبوع نكون اليوم؟

ـ اليوم هو أربعاء (وكان في الحقيقة يوم جمعة)

- ما هو أقدس أيام الإسبوع؟

- الأربعاء.

- ما هو سر قدسيته؟

- قدسيته تنبع من كونه يوم إلهي يدّر على الخلق بالبركة والعطاء، لأنه يوم قضاء الخير على الشر. وبعد أن أشبع العجوز المفزوع أسئلتهم طلب هو الآخر منهم راجياً كي يزيحوا عنه كابوسهم الجاثم على جسده المتعب المثقل بالأهوال ففعلوا. ثم بدّلوا ثيابه الرثة بأخرى أنيقة وودعوه برفق وحنان ليسلك سبيلهُ إلى مسعاه.

وفور وصوله أبلغ رفيقه بالسر فاندهش هذا الأخير لهذا الخبر العجيب دون أن يستطيع تصديقه فما كان عليه إلا أن يتحقق من صحته بنفسه. ولما وصل كان الجن لا يزالون يتبادلون الحديث عن يوم الأربعاء وسره المقدس. فثارت حفيظته وقفز بينهم كالملسوع ثم جهر فيهم قائلاً:

- اليوم ليس بأربعاء وانما هو الجمعة. وما على الأربعاء إلا السجود ليوم الجمعة لأنه الأقدس والأبجل لكن جموع الجن ما لبثوا وأن انتفضوا عليه لإرتداده عن سبيل الحق وانتهاكه لعقيدتهم وقرروا معاقبته ليلقى على أيديهم جزاءه المستحق، فعذبوّه أيما تعذيب.

ومنذئذٍ بدأ يهاب الأربعاء ويسجد لسره المقدس»(8).

اعتقد إن حكاية/ اسطورة كهذه لا تتطلب تفسيراً أو تمحيصاً فتمحورها حول قدسية الأربعاء ومكانتها في الميثولوجيا الكردية واضحٌ وجلي. وما واقع الجن الماورائي المسرود ضمن سياق النص الإسطوري إلا مسقطاً للوعي الثيولوجي لدى الإنسان الكردي.

أما تعالق (الدخول في علاقة) هذا الواقع الميتافيزيقي مع الواقع اليومي المُعاش فهو تعبير عن تداخل الديني مع السوسيولوجي والواقع مع الما وراء.

وإذا كانت الميثولوجيا الكردية قد تناولت الأربعاء كأقدس أيام الإسبوع فإن الميثولوجيا الأيزيدية شبعت من تناولها لهذااليوم حتى أصبح الأربعاء رمزاً من رموز مقدساتها.

● ـ الأربعاء الأحمر ـ رأس السنة الأيزيدية:

كان لكل الأقوام والجماعات البشرية المتعاقبة على وجه المعمورة تقويماتهم وحساباتهم الفلكية لتتبع أحوال الطقس وتعاقب الفصول وحركات النجوم والكواكب وغير ذلك من الظواهر التي شغلت بال الإنسان منذ أن دخل حلبة الصراع مع الطبيعة وقواها المهيبة.

ولكن هذا لا يعني بالضرورة انفراد كل قومٍ أو تشكيلةٍ بشرية بمعارفها وعلومها. فقد تكون واقعةً تحت مؤثراتٍ ثقافية لحضارات أخرى.

وبالرغم من دخول الأيزيدية ميكانيزمية التثاقف متأثرةً بالثقافات المجاورة إلا أن ذلك لا ينفي هويتها باعتبارها كلاً متكاملاً وذا مقوماتٍ ثقافية خاصة مصبوغة بصبغتها.

فالأيزيديون يعتمدون التقويم الشرقي الغريغوري(9) في مختلف جوانب حياتهم الدينية والدنيوية حتى أنهم يصبغون أيام الإسبوع وأشهر السنة وفصولها بصبغةٍ دينية محضة. وخير شاهدٍ على ما نذهب عليه هو تراثهم الديني الزاخر بالأدعية والأناشيد المتناولة لهذا الموضوع بإسلوبٍ ادبي أخاذ. وهذه مقاطع منها:

يه دشى من دور مه كانه
ل باوى وه عه يانه
وى خو لقاند عه رد و عه زمانه
بيفلو كرفه داره
شيشمس ب خو خوند كاره
روناليا شيشمس دابنيت به حرا
يه دشي منى جه باره
ربا وى وافروارة
جارشه مبوو روره كه فادله
مه له ك فه خره ديـن عـه فرانـد بـوو نـه
شق ودوله ول
ناس نه وكر روحيت جو غافله
يه دشى من هه ر هه فت روثر دكرن هه
رماره
ثو ئه ق دنيا جيد كرو هلد يه ساره
ثو رور شه مبوو بوو موسابن عـه مرى
وهنا ره.
مه ياره ك دڤيت يي يرف يى زانه
ئو ر مه رابده ت به يانه
كابنياتا هه ر دوازده مه ها كي روانه؟

الهي دُرةُ المكان
هو العلي العليم
خالق الأرض والسموات

كال وقاس وهو لعلى كل شيء قدير
الشيخ شمس ملاك بذاته
اشراقته استقرت في اعماق البحار

إلهي لجبار قدير
هو من صيّر الأربعاء إلى أربعة.

الأربعاء يوم فاضل
خلقه الملك فخر الدين من شفاعة قلبه
هجرته الروح على غفلةٍ دون أن يعلم

إلهي خلق الأيام السبعة

خلق كل الكينونة ونقشها
كان يوم سبتٍ حين ولد موسى بن عمر

نريد صديقاً عليماً
ليدلنا إلى الصواب
فيخبرنا أي شهرٍ يصلح أساساً للأشهر
الإثني عشر

كانوونى وار خو خه به ردا

ئه زم سه فايا عه ردا

به لى مفعه ئم سه رج فاس ده ردا

كانوون جوو ب سه ردا هـاتى سوباتاره
شه

دكَه ل كانوونى دكه ت قه رقه شه

كَوتى: توجويي بينا دنيايى ب من يه خـوه
شه

كانوون دبيرت:

ئه م دوو مــه هيـن يـه وشـايى كريـن خـه
لات

ل مه دكه فن ئه وئه ربه عينات

ر حـه دى وى يـه ل كَـه مــه بكــه لمـت
سوبات

نادار دبيرتى ئه زنادارم

ئه ول كليلا جه ندى به هارم

نيسان واذده ت خه به را

هه كه ئه ز به هارا خو ب خه ملينم ركه
سك و

سور وسيبى وزه ره

هو ذا كانون يتصدر

أنا من يسقي الأرض

وأنا شافٍ لكل داء

أفل كانون وشباط الأسود أقبل

معاركاً إياه

فيقول : بأفولك باتت الطبيعة تنضح عطراً

ردَّ كانون قائلاً

إننا شهران باركنا الإله

تليق بنا الأربعينيات «10»

هيهات لمن يعادينا ياشباط.

أنا آذار باكورة أكاليل الربيع

تزدان بي المدائن قاطبةً.

هو ذا نيسان يقبل

لـو كللـتُ ربيعـي بـالأخضر والأحمـــر والأبيض والأصفر

رحه دي هه ريازده مه هال كَه ل

من بده ن خه به ره

نيسان جوو ب سه ردا هاتي كَو لانى

راره

ئه زكَو لا ناب كَولم

يه ب شالوول وبلبلم

به لى مه لهه ما برينيت كولم

كَولاف دبيرت: نيسانى نه سيب نه

ى ب منه

وى ل ميرى مه زنه

ته ير رفه روا راوى وفرنه

كَولانى ته ل مالى بكه فت خزيرانه

دوله ته كا هو يه كرانه

يه به ده خله يه ب دانه

خزيران وه ده فكَ وهلتينى

نه ز مه هه كم يه بى هاره يه بى شيني

ل من يه يدا وبن بيده ريت هنكُفينى

تيرمه هـ دُبيرت:

نه ز مه هه كه كَه رمم

جه ليمه كه هو يه نه رمم

فسوف لن تجرؤ الأشـهر الأحدى عشـرة

على مجاراتي.

انقضى نيسان وخلفه أيار البائس

أنا أيار المتخم بالورد

ذو البلابل والدوري

أنا داء الجراح الملتهبة

يقول أيار لنيسان: لست مصدراً للرزق

والحظوظ السعيدة

وإنما لهو على الملاك الأكبر

حيث تطلق الطيور بحكمه وفرمانه.

مضى أيار وحزيران أقبل

ذو العطاء والسخاء

بحبوبه وبقوله

هو ذا حزيران يدمدم:

أنا شهر بلا ربيع

معي تكثر البيادر العسلية

يقول تموز:

أنا شهر قائظ

رؤوف حليم

حه ليمه كه حورم
يه ب جيى خوون وبيده رم ئه ز خيره كم
يه بى شه رم

ته باخى وا ده نكَـ هلينا
ئه ز مه هه كم ناقى من هافينا
ئه ز به ركه كم سه رج قاس به زه مسكيناً

ئيلون هات و ده رى قوماشى خو قه كر
ل د نى ئول وه لانا بووه وكر
حو سن وجمال ل شمس وفخر

ئه م ددو مه هين ناقى مه جرى
رجه م يه دشايى دخه لات كرى
ل مه وكه فن ناز ونوممه ت وترى

هات مه هاب ناق جه بيره
سه ر يازده مه ها وكَيره
كه له ك به زه مسكينا رى وبووخيره

أعشش البيادر والمواسم
أنا الخير المطلق الذي لا يشوبه شائبة شر.

وها آب قد أقبل
أنا شهر مسمى بالصيف
أترأف على كل المساكين والفقراء.

قدم أيلول فاتحاً متاريسه
شاع صيته في كل البلاد والأنحاء
النور والجلالة لـ شمس وفخر

إنّا شهران نسميا بـ تشرين
مباركان بسر الإله /الملاك
تليق بنا البحبوحة والنعيم.

أقبل الشهر المسمى بالجبار
يتناوب على الأشهر الإحدى عشر
المساكين وذوي الحرمان يلقون منه الخير والشفاعة.

(11)

لقد نوّهنا فيما سبق أن ظاهرة التثاقف (التأثر والتأثير بين الثقافات) كانت ولا تزال تفعل فعلها بين الجماعات البشرية وذلك في مختلف الصعد والمجالات.

وإذا كانت الأيزيدية قد أهابت الطبيعة والّهت ظواهرها متيممة في بحر طوطمي، فإن الزرادشتية قد طورت هذه الأفكار على أرضية الصراع المستديم بين الخير والشر، النور والظلام، آهورامزدا وأهريمان. وهنا بالضبط تكمن عبقرية زرادشت وعظمة أفكاره، إذ علل كل شيء بإعادته إلى ذلك الصراع لأنه المسبب الأول لكل العلل والموجودات. وعلى الرغم من وجود إلهين جبّارين يتنازعان على الدوام لمسك زمام العالم والإستفراد بمصيره فإن ذلك لا يمنع وجود آلهة آخرين كمساعدين لهما في تأجيج نار الصراع وتفعيل ديناميكيته حتى يرفع اهريمان رايته البيضاء معلناً الإستسلام أمام قوى الخير والنور المتجسدة في آهورامزدا.

إذاً فالزرادشتية ــ شأنها كشأن سائر أديان المنطقة ــ تسبح في فلكٍ بوليثرمي (PolyThiesm)/ التعدد الألوهي. ولا تزال لهذه الظاهرة قدسيةً فريدة في طقوس الزرادشتيين حتى يومنا هذا، فهم يكنوّن في ذواتهم الحب لـ «آناهيتا AnahiTa» والهيبة لـ بَهمن Bahman » والتوسل لـ «مهر Mahr » وسروش Srush» و..الخ إلى جانب تبجيلهم اللا محدود وحبهم اللا متناهي لإله الخير المطلق آهورامزدا Ahoramazda لذا لم تكتفِ الزرادشتية بإضفاء صفة القدسية على أيام الإسبوع فحسب بإعتبارها تجسيداً لروح الآلهة كما ألفناه في معتقدات الأديان الأخرى سواء في العراق القديم أو في المنطقة الهندوايرانية، وإنما سمَّت اشهر السنة أيضاً بأسماء آلهتها كالتالي:

فروردين (Faruardin) ـ ارديبهشت (ArdibhashT) ـ مزداد (Masdad)
تير (Tir) ـ امرداد (AmErdad)ـــ شهريور (Shahryur) مهر (Mahr) ـــ
آبان (Aban) ـ آذر (AThr) ـ دي (Di) ـ بهمن (Bahman) ـ اسفند (Sfand).

سبق وأشرنا في سياق البحث إلى تقويم مجبول بطينة إيزيدية صرفة.

ولو أمعنّا النظر في ماهية الإسبوع وكيف يتناوله الأيزيدي في طقوسه واستخدامات حياته اليومية فسوف نستشفُ أنه ذو خصوصية فريدة. إذ يبتدئ بيوم الخميس وينتهي بيوم الأربعاء الذي يُعدُّ يوم عطلةٍ رسمية كونه الأقدس على الإطلاق ومحرمٌ فيه أداء الأعمال والوظائف وحراثة الأرض أو زراعتها كما لا يجوز القيام بأعمال الغسيل وما شابه. إضافةً إلى تحريم الإستحمام والسفر... الخ.

ومردُّ ذلك يعود إلى الحوامل الميثولوجية التي نُصبت عليها خيمة الأربعاء المقدس. وحين يتخذ الأيزيديون الأربعاء الأول من نيسان عيداً لرأس سنتهم الجديدة فإنهم يستمدون إيمانهم من منابع ثيولوجية / اسطورية لا تنضب.

إن لهذا اليوم علاقة مباشرة بملاكهم الأكبر طاووس ملك الذي اغتنت به الميثولوجيا الأيزيدية.

فيعتقد الأيزيديون أنه قد هبط لأول مرة من العرش الألوهي حين كانت الأرض كلها مغطاة بالمياه وحطّ على شجرة العزة الربانية / الهرهر (Herhr) وذلك في الأربعاء الأول من نيسان.

ووقوع هذا اليوم المبارك في شهر نيسان جعله هو الآخر مقدساً ومباركاً وموضع هيبةٍ وتبجيل في العقيدة الأيزيدية. فنيسان هو شهر السجود للآلهة والملائكة، إنه شهر تزكية الروح والتقرب من عالمه النرفانوي .(12)

وما هذا إلا امتداد آخر للمعتقدات الميسوبو تامية التي كانت تعتبر «لكل إلـه أعياده الدينية المعينة وكان أهمها عيد رأس السنة الجديـدة ، يحـلّ هـذا العيـد في الربيع / شهر نيسان وبمرور الوقت اكتسب صفةً ثنائية وقد نشأ هذا العيد أصلاً كعيد من أعياد الطبيعة وهو يتميز بنوعين مـن المظـاهر فيعـبر المظهـر الأول عـن حزن الطبيعة على موت كل الأشياء النامية ويعبر المظهر الثاني عن فرحة الطبيعة بعودة الحيـاة إلى هـذه الأشياء»[13] إن قدسية شـهر نيسـان متأتيـة أيضـاً مـن كونه شهر التزاوج بين الآلهـة/ الملائكـة، لـذا حرمـت الأيزيديـة الـزواج وعقـد القران فيه إضافةً إلى تحريم أعمال حفر الأرض أو نبشها فهو شهر التلاقـح بـين معظـم نباتـات وأزهـار الطبيعـة. وهنـاك مثـل شـائع بـين الأيزيديـين مفـاده: (نيسان بووكا ساليه دِسـه ر خـوه راتـى بووكـا فـه بـوول ناكـه ـ أي نيسـان عروسة السنة لا تقبل من بعدها عرائس).

كـان لظـاهرة الـزواج المقـدس /زواج الآلهـة والملائكـة تأثيرهـا في ميثولوجيـات وثقافـات غالبيـة الشـعوب القديمـة «فكـل دولـة مدنيـة كـانت تؤمّن خصب مراعيها وقـوة اخصـاب شـعبها وماشيتها بواسـطة(الـزواج المقـدس) بـين الإلـه الـذي يحميهـا وواحـدة مـن الهتهـا الخاصة وهـو الـزواج الـذي كـان يحتفـى بـه في ربيـع كـل عـام وشـكل عنصـراً أساسـياً مـن احتفـالات السـنة الجديدة»[14]

فمقاربة كهذه توصلنا إلى الإعتقاد بأن اتخاذ الأيزيدية نيسان بداية لسنتهم الجديدة هو ناتج عن تأثيره ميسوبوتامي صرف سيما لو علمنا أن:

1 ـ نيسان هو الشهر الأول في التقويم البابلي (نيسان ـ أيار ـ صيوان ـ تموز ـ آب ـ أيلول ـ تيسري ـ مارحيسوان ـ كيسليف ـ تبيت ـ سباط ـ آدار).

2 ـ عيد السري سالي/ رأس السنة في الأيزيدية متزامن مع عيد الأكيتو AkiTo)
البابلي الذي يفيد المعنى ذاته (رأس السنة).

3 ـ وجود تشابه كبير في الطقوس يحيِّر المرء في التمييز بين ما هـو بـابلي ومـاهو أيزيدي.

مصادر وهوامش البحث

1 ـ ماكس شابيرو رودا هندريكس ـ ترجمة حنا عبود / معجم الأساطير. دار الكندي 1989 / ص 7.

2 ـ الكاريزما نظرية سوسيولوجية تفسر كل شيء بإعادته إلى كائنات فوقبشرية وأبطال خارقين.

3 ـ مصحف رش ـ السفر 8-1

4 ـ من دعاء الخليقة ـ نافراندنا دنيايي (مجموعة أدعية فقير حجي المار ذكره).

* ـ أودُّ التنويه هنا إلى أن هذا المقطع من الدعاء قد جاء بشكل آخر في كتاب د. خليل جندي/ نحو معرفة حقيقة الديانة الأيزيدية ـ الحلقة الثانية 1993 /ص 17 :

شه بحو دانه ئه ساسه	وفي السبت وضعوا الأساس
نيتى كره خه لا سه	وانتهوا منه الجمعة.

إن هذا الإختلاف يعود إلى الظروف التاريخية الصعبة التي عاني فيها الأيزيديون شتى أساليب الظلم والإضطهاد فجاء المقطع المنوه أعلاه وأدعية أخرى كثيرة مصبوغة بصبغة إسلامية صرفة.

5 ـ للزرادشتية رؤية أخرى إذ ترى بأن الجنس البشري مخلوق من زوجين اثنين عرفا بـ «مشيا ـ Meshya » و «مشيانا anayhseM » ومعناهما في الأفستائية ذكر و انثى. .

6 ـ مصحف رش ـ السفر 28 ـ 29 ـ 30 ـ 31 ـ 32 .

* ـ بالرغم من أن الباحثين لم يتوصلوا بعد إلى الإجابة الدقيقة عن سؤال كهذا:

إلى أية مرحلة تاريخية تعود الأيزيدية؟.

رغم ذلك فإنها ـ حسب دراسات وأبحاث كثيرة ـ تسبق الميلاد قروناً عديدة. وهذا ينفي مصحف رش والجلوة باعتبارهما كتابين متزامنين مع زمن ظهور الأيزيدية وذلك لأسباب كثيرة منها:

1 ـ التخبط التاريخي الفظيع الذي وقع فيه واضعا الكتابين:

ـ كيف تكون الأيزيدية قبل اليهود والنصارى والإسلام ويتم تناولهم في كتبهم المقدسة في الآن ذاته. إن هذا الدليل قاطع على حقيقة هذين الكتابين العائدين إلى مرحلةٍ تاريخية متأخرةمن الأيزيدية.

ـ جاء في مصحف رش أيضاً: إن شابور الأول وشابور الثاني كانا ملكين على الأيزيدية ودام

حكمهما مائة وخمسين سنة سويه وأن الأمراء الأيزيديين هم من نسلهما.

إن هذا خطأ تاريخي آخر. فشابور الأول والثاني هما من ملوك الساسانيين هذا أولاً.

وأخيراً فإن حكمهما لم يدم هذا المقدار من السنين.

2 ـ اللغة الركيكة التي جاءا بها توقعنا في الشك بالكثير من أسفارها.

ومع ذلك فإننا لا ننكر كل ماجاء بين ثنايا هذين الكتابين فهما يعكسان دون شك جانباً من جوانب معتقدات هذه الديانة في مرحلةٍ حرجة من مراحلها التاريخية . وسوف نتناول ذلك في دراسات أخرى أكثر تعمقاً.

7 ـ لمزيدٍ من التفاصيل حول هذاالموضوع . ينظر بحثنا المنشور في مجلة أسو ـ العدد 4/ 1994 ص 59 ـ 67 باللغة الكردية تحت عنوان «الأيزيدية وعلاقتها بالقومية الكردية».

8 ـ لمزيد من التفصيل حول هذه الحكاية / الإسطورة ينظر مجلة ره وشه ن REWSEN الصادرة عن مركز الثقافة الميسوبوتامية في استانبول/ العدد 94 شباط . ص 40 وما يتبعها.

9 ـ إن التقويم اليولياني الذي لا قى رواجاً واسعاً في عصور النهضة وما قبلها قد خلق نوعاً من الحيرة والإرتباك لدى مناصريه والسائرين على هَدْيه لأن سنته المدنية كانت تطول على سنته الفصلية بـ 11 دقيقة و 14 ثانية. وهكذا كانت تتأخر السنة الفصلية عن السنة المدنية يوماً واحداً كل مئة وثمانية وعشرين سنة (128) . لهذا قام البابا كريغور الثالث عشر بتصحيح مسار التقويم اليولياني بزيادة عشرة أيام إلى سنتة فاصبح يوم الخامس من تشرين الأول من عام 1582 م الخامس عشر منه. ومنذئذ عُرف هذا التقويم باسم الغريغوري نسبةً إلى غريغور.

10 ـ المقصود هنا هو مربعانية الشتاء.

11 ـ مقاطع من «دعاء الشهور ـ قه ولى مه ها» . ولمزيدٍ من الاطلاع والتفصيل ينظر في:

مجلة لالش المار ذكرها ـ العددين 2 ـ 3 / 1994 ص 23 وما بعدها.

12 ـ تُعد النرفانا (Nirvana) مبدأً من مبادىء العقيدة الهندوسية وهي تعني بلوغ الروح للخير والكمال المطلقين باتحادها مع براهما Brahma /روح العالم.

13 ـ جورج كونتينو ـ الحياة اليومية في بلاد آشور وبابل/ ص 474.

14 ـ جورج رو ـ العراق القديم/ ص 132.

ـ الفهرس ـ

«تتسم الايزيدية كما هو جليٌ ومعروف بطبيعةٍ إنطوائية تستوجب على أتباعها كتم الموروث الديني وحفظ أسرار ديانتهم لئلا تُفشى بين معتنقي الأديان الأخرى. مما يوقع باحثيها ودارسيها في دوامةٍ من الإشكاليات لا أول لها ولا آخر سيما لو علمنا أن علم الصدر والتراث الشفاهي هما المصدران الوحيدان اللذان يوصلان إلى حقيقة هذه الديانة.

لذا يدرج الباحثون اليوم الايزيدية تحت قائمة الأديان القديمة التي يُخشى عليها من الإنقراض والتلاشي.

وما الدين إلا امتداداً لخط التطور الإسطوري لدى الأقوام والجماعات البشرية التي اعتنقت أفكاراً أو معتقداتٍ تلائم طريقة تفكيرها وأساليب معيشتها. لأن الإسطورة أنّى وأينما كانت هي في النهاية انعكاس للواقع الثقافي المُعاش بل هي افرازٌ من إفرازاتها على مرّ التاريخ.»

هذا الكتاب

يبدو لنا الباحث والشاعر هوشنك بروكا، عبر دراسته هذه، والتي تنمُّ عن فهم عالٍ، وقراءة جد متعمقة، لنصوص وجوهر الديانة الايزيدية وعلم الأديان المقارن، مسكوناً بهاجس رفع الأستار عن حقيقة الايزيدية، وإزالة كل غموض يحول دون الوقوف على كنه هذه الديانة الكردية، إذ يأخذ بيد قارئه، ساعياً لادخاله ضمن حرم الدائرة المقدسة، وطوق إيزيد اللذين كادا وخلال قرون طويلة جداً أن يكونا بحق احد أعظم الألغاز المستعصية التي تناسلت وأثارت بدورها أسئلة لم تنته... قط، ليس كي يقول لنا: ها نحن على حقيقتنا وأهميتنا فحسب..!!، بل ليدحض مزاعم واتهامات كثيرة بصفاتٍ مجحفة قديماً وحديثاً.

والباحث، خلال رحلته المشوقة والمدهشة هذه مع قارئه، يروم استقراء دلالات ورموز وميثولوجيا وأساطير وتراث علم صدرٍ ضاربٍ في أعماق الخوف والتاريخ، حيث أن كل هذا ليس إلا بعض جوانب وطقوس هذه الديانة التي تمثل مرحلة متقدمة من وعي الإنسان الكردي، وذلك من خلال الكشف عن أسرار وعوالم ممتعة، ومجهولة حقاً، كاد أن يطويها النسيان والتناسي في آنٍ واحد، ناهيك عن قوى الشر التي كانت تستهدف ابادة هذه الديانة بالسيف والتضليل والعسف والمذابح والأحقاد العمياء للأسف الشديد.

• إبراهيم اليوسف